١٠/٥٤٩ / قالَ شيخُ الإِسْـلاَم ـ رَحِمَه اللَّه تَعَالَى :

فَصْـــل

حدثني أبي عن محيى الدين بن النحاس؛ وأظني سمعتها منه أنه رأى الشيخ عبد القادر في منامه وهو يقول إخباراً عن الحق تعالى: «من جاءنا تلقيناه من البعيد، ومن تصرف بحولنا ألنا له الحديد، ومن اتبع مرادنا أردنا ما يريد ، ومن ترك من أجلنا أعطيناه فوق المزيد».

قلت: هذا من جهة الرب ـ تبارك وتعالى :

فالأولتان: العبادة والاستعانة، والآخرتان :الطاعة والمعصية ،فالذهاب إلى اللّه هي عبادته وحده كما قال تعالى: «من تقرب إلي شبراً تقربت إليه ذراعاً ، ومن تقرب إليّ ذراعاً تقربت إليه باعاً، ومن أتاني يمشي أتيته هرولة»(١).

١٠/٥٥٠ والتقرب بحوله هو الاستعانة ، والتوكل عليه، فإنه لا حول ولا / قوة إلا باللّه. وفي الأثر :«من سره أن يكون أقوى الناس فليتوكل على اللّه»(٢). وعن سعيد بن جبير : «التوكل جماع الإيمان»(٣)، وقال تعالى: ﴿**وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ**﴾ [الطلاق: ٣]، وقال: ﴿**إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ**﴾ [الأنفال: ٩]، وهذا على أصح القولين في أن التوكل عليه ـ بمنزلة الدعاء على أصح القولين أيضًا ـ سبب لجلب المنافع ودفع المضار، فإنه يفيد قوة العبد وتصريف الكون ولهذا هو الغالب على ذوي الأحوال متشرعهم وغير متشرعهم، وبه يتصرفون ويؤثرون تارة بما يوافق الأمر، وتارة بما يخالفه.

وقوله: « ومن اتبع مرادنا» يعني: المراد الشرعي كقوله: ﴿**يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ**﴾ [البقرة: ١٨٥]، وقوله: ﴿ **يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ**﴾ [النساء: ٢٨]، وقوله: ﴿**مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ**﴾[المائدة: ٦] هذا هو طاعة أمره، وقد جاء في الحديث :«وأنت يا عمر لو أطعت اللّه لأطاعك» ،وفي

---

(١) البخاري في التوحيد (٧٤٠٥) ومسلم في التوبة (٢٦٧٥/١).

(٢) أحمد في الزهد (١٧١٢) ، وابن أبي الدنيا في التوكل١/ ٥٠ (٩)، والسيوطي في الجامع الصغير (٨٧٤٢) وعزاه لابن أبي الدنيا وحسنه، وكنز العمال (٥٦٨٦)، والمناوى في فيض القدير ٦/ ١٥٠.

(٣) أبو نعيم في الحلية ٤/ ٢٧٤، وابن أبي الدنيا في التوكل ١/ ٤٨ (٥).

الحديث الصحيح: «ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه» (١)، وقد قال تعالى: ﴿وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ﴾ [الشورى: ٢٦].

وقوله: « ومن ترك من أجلنا أعطيناه فوق المزيد» . يعني: ترك ما كره الله من المحرم والمكروه لأجل الله: رجاء ومحبة وخشية أعطيناه فوق المزيد؛ لأن هذا مقام الصبر، وقد قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠].

(١) سبق تخريجه ص ٨.

١٠/٥٥١ / سُئِلَ عن «إحياء علوم الدين» و «قوت القلوب»... إلخ.

فأجـــاب :

أما «كتاب قوت القلوب» و «كتاب الإحياء» تبع له فيما يذكره من أعمال القلوب: مثل الصبر والشكر، والحب والتوكل، والتوحيد ونحو ذلك. وأبو طالب أعلم بالحديث والأثر، وكلام أهل علوم القلوب من الصوفية وغيرهم ،من أبي حامد الغزالي ، وكلامه أسد وأجود تحقيقاً، وأبعد عن البدعة مع أن في «قوت القلوب» أحاديث ضعيفة وموضوعة، وأشياء كثيرة مردودة.

وأما ما في «الإحياء» من الكلام في «المهلكات» مثل الكلام على الكبر، والعجب والرياء، والحسد ونحو ذلك ، فغالبه منقول من كلام الحارث المحاسبي في الرعاية ، ومنه ماهو مقبول ومنه ماهو مردود، ومنه ما هو متنازع فيه.

و«الإحياء» فيه فوائد كثيرة ، لكن فيه مواد مذمومة، فإنه فيه مواد فاسدة من كلام
١٠/٥٥٢ الفلاسفة تتعلق بالتوحيد والنبوة والمعاد، فإذا / ذكر معارف الصوفية كان بمنزلة من أخذ عدواً للمسلمين ألبسه ثياب المسلمين.

وقد أنكر أئمة الدين على أبي حامد هذا في كتبه. وقالوا: مرضه« الشفاء» يعني شفاء ابن سينا في الفلسفة.

وفيه أحاديث وآثار ضعيفة، بل موضوعة كثيرة.

وفيه أشياء من أغاليط الصوفية وترهاتهم.

وفيه مع ذلك من كلام المشايخ الصوفية العارفين المستقيمين في أعمال القلوب الموافق للكتاب والسنة، ومن غير ذلك من العبادات والأدب ما هو موافق للكتاب والسنة، ما هو أكثر مما يرد منه؛ فلهذا اختلف فيه اجتهاد الناس وتنازعوا فيه.

/ وَقَالَ شَيْخُ الإِسْلام ـ قدس الله روحه : ١٠/٥٥٣

فَصْـــل

قد دل الكتاب والسنة وآثار سلف الأمة على جنس المشروع المستحب في ذكر اللّه ودعائه كسائر العبادات، وبين النبي ﷺ مراتب الأذكار، كقوله في الحديث الصحيح الذي رواه مسلم وغيره عن سمرة بن جندب: «أفضل الكلام بعد القرآن أربع، وهن من القرآن: سبحان اللّه، والحمد للّه، ولا إله إلا اللّه، واللّه أكبر، لا يضرك بأيهن بدأت»(١). وفي صحيحه عن أبي ذر قال: سئل رسول اللّه ﷺ :أي الكلام أفضل ؟ قال: « ما اصطفى اللّه لملائكته سبحان اللّه وبحمده»(٢).

وفي «كتاب الذكر» لابن أبي الدنيا وغيره مرفوعاً إلى النبي ﷺ :«أفضل الذكر لا إله إلا اللّه، وأفضل الدعاء الحمد / للّه» (٣). وفي الموطأ وغيره حديث طلحة بن عبد اللّه بن ١٠/٥٥٤
كريز عن النبي ﷺ :«أفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلي: لا إله إلا اللّه وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير» (٤)،وفي السنن حديث الذي قال: يا رسول اللّه، إني لا أستطيع أن آخذ من القرآن شيئًا ، فعلمني ما يجزئني في صلاتي فقال:« قل:سبحان اللّه والحمد للّه، ولا إله إلا اللّه واللّه أكبر»(٥) . ولهذا قال الفقهاء: إن من عجز عن القراءة في الصلاة انتقل إلى هذه الكلمات الباقيات الصالحات. وفضائل هذه الكلمات ونحوها كثير ليس هذا موضعه.

وإنما الغرض من الذكر والدعاء ما ليس بمشروع الجنس أو هو منهي عنه أو عن صفته. كما قال تعالى: ﴿**ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ**﴾ [الأعراف: ٥٥]، وقال تعالى: ﴿**وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا**﴾ [الأعراف: ١٨٠] فلا يدعي إلا بأسمائه الحسنى.

ومن المنهي عنه: ما كانوا يقولونه في الجاهلية في تلبيتهم: لبيك لا شريك لك، إلا شريكاً هو لك ، تملكه وما ملك. ومثل قول بعض الأعراب للنبي ﷺ : إنا نستشفع باللّه عليك . فقال النبي ﷺ : « شأن اللّه أعظم من ذلك ، إن اللّه لا يستشفع به على أحد من خلقه »(٦) ومثل ما كانوا يقولون في أول الإسلام : / السلام على اللّه قبل عباده . ١٠/٥٥٥

(١) سبق تخريجه ص ١٣٥.

(٢) مسلم في الذكر والدعاء (٢٧٣١/ ٨٤).

(٣، ٤) سبق تخريجهما ص ١٣٣.

(٥) النسائي في الافتتاح (٩٢٤) والبيهقي في السنن الكبرى ٢/ ٣٨١ والدارقطني ١/ ٣١٣.

(٦) أبو داود في السنة (٤٧٢٦)، وضعفه الألباني .

فقال النبي ﷺ : « إن اللّه هو السلام ، فإذا قعد أحدكم فليقل : التحيات للّه والصلوات والطيبات»(١).

أشار بذلك إلى أن « السلام» إنما يطلب لمن يحتاج إليه، واللّه هو «السلام» ،فالسلام يطلب منه لا يطلب له. بل يثنى عليه، فإنه له فيقال: التحيات للّه والصلوات والطيبات. فالخق سبحانه يثنى عليه ويطلب منه، وأما المخلوق فيطلب له. فيقال : السلام عليك أيها النبي ورحمة اللّه وبركاته،السلام علينا وعلى عباد اللّه الصالحين. قال تعالى: ﴿**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنس إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ . مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ**﴾ [الذاريات: ٥٦، ٥٧]، والرزق يعم كل ما ينتفع به المرتزق ؛ فالإنسان يرزق الطعام والشراب واللباس، وما ينتفع بسمعه وبصره وشمه، ويرزق ما ينتفع به باطنه من علم وإيمان ، وفرح وسرور ، وقوة ونور، وتأييد وغير ذلك، واللّه سبحانه ما يريد من الخلق من رزق ، فإنهم لن يبلغوا ضره فيضروه، ولن يبلغوا نفعه فينفعوه، بل هو الغني وهم الفقراء. ﴿**لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ**﴾ [آل عمران: ١٨١]، وهو الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد.

وكذلك الدعاء المكروه،مثل الدعاء ببغي أو قطيعة رحم أو دعاء منازل الأنبياء أو دعاء الأعرابي الذي قال : اللهم ما كنت معذبي به في / الآخرة فعجله لي في الدنيا ، ومثل ١٠/٥٥٦
قوله ﷺ للمصابين بميت لما صاحوا: « لا تدعوا على أنفسكم إلا بخير؛فإن الملائكة يؤمنون على ما تقولون»(٢) وقد قال تعالى: ﴿**وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُم بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ**﴾ [يونس: ١١] ،وقال تعالى: ﴿**وَيَدْعُ الإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الإِنسَانُ عَجُولاً**﴾ [الإسراء: ١١]، وهذا باب واسع ليس الغرض هنا استيعابه. وإنما نبهنا على جنس المكروه.

وإنما الغرض هنا أن الشرع لم يستحب من الذكر إلا ما كان كلاماً تاماً مفيداً مثل: «لا إله إلا اللّه » ، ومثل: « اللّه أكبر» ،ومثل «سبحان اللّه والحمد للّه » ،ومثل «لا حول ولا قوة إلا باللّه»،ومثل ﴿**تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ**﴾ [الرحمن: ٧٨]، ﴿ **تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ**﴾ [الملك: ١]، ﴿**سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ**﴾ [الحديد: ١] ﴿ **تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ**﴾ [الفرقان: ١].

فأما« الاسم المفرد» مظهراً مثل : «اللّه،اللّه» أو «مضمراً» مثل: «هو،هو». فهذا ليس بمشروع في كتاب ولا سنة، ولا هو مأثور أيضاً عن أحد من سلف الأمة، ولا عن

(١) البخاري في الأذان (٨٣١)، ومسلم في الصلاة (٤٠٢/٥٥)، وأبو داود في الصلاة (٩٦٨) ، كلهم عن عبد الله بن مسعود.
(٢) مسلم في الجنائز (٩٢٠/٧) .

أعيان الأمة المقتدى بهم، وإنما لهج به قوم من ضلال المتأخرين.

وربما اتبعوا فيه حال شيخ مغلوب فيه، مثلما يروي عن الشبلي أنه كان يقول: «اللّه، اللّه». فقيل له: لم لا تقول: لا إله إلا اللّه؟ / فقال: أخاف أن أموت بين النفي والإثبات. ١٠/٥٥٧
وهذه من زلات الشبلي التي تغفر له لصدق إيمانه، وقوة وجده، وغلبة الحال عليه، فإنه كان ربما يجن ويذهب به إلى المارستان، و يحلق لحيته. وله أشياء من هذا النمط التي لا يجوز الاقتداء به فيها؛ وإن كان معذوراً أو مأجوراً، فإن العبد لو أراد أن يقول: « لا إله إلا اللّه» ومات قبل كمالها لم يضره ذلك شيئًا؛ إذ الأعمال بالنيات؛ بل يكتب له ما نواه.

وربما غلا بعضهم في ذلك حتى يجعلوا ذكر الاسم المفرد للخاصة، وذكر الكلمة التامة للعامة، وربما قال بعضهم: «لا إله إلا اللّه» للمؤمنين، و«اللّه» للعارفين، و«هو» للمحققين، وربما اقتصر أحدهم في خلوته أو في جماعته على «اللّه، اللّه، اللّه». أو على «هو» أو «يا هو» أو «لا هو إلا هو».

وربما ذكر بعض المصنفين في الطريق تعظيم ذلك. واستدل عليه تارة بوجد ، وتارة برأي ، وتارة بنقل مكذوب ، كما يروي بعضهم أن النبي ﷺ لقن عليّا بن أبي طالب أن يقول: «اللّه، اللّه، اللّه» . فقالها النبي ﷺ ثلاثاً . ثم أمر علياً فقالها ثلاثا. وهذا حديث موضوع باتفاق أهل العلم بالحديث.

/ وإنما كان تلقين النبي ﷺ للذكر المأثور عنه، ورأس الذكر: «لا إله إلا اللّه»، وهي ١٠/٥٥٨
الكلمة التي عرضها على عمه أبي طالب حين الموت. وقال: «ياعم، قل : لا إله إلا اللّه، كلمة أحاج لك بها عند اللّه»(١)، وقال: « إني لأعلم كلمة لا يقولها عبد عند الموت إلا وجد روحه لها روحاً»(٢)، وقال: «من كان آخر كلامه لا إله إلا اللّه دخل الجنة»(٣)، وقال: «من مات وهو يعلم أن لا إله إلا اللّه دخل الجنة»(٤)، وقال: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا اللّه، وأن محمداً رسول اللّه، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها ، وحسابهم على اللّه»(٥) والأحاديث كثيرة في هذا المعنى.

وقد كتبت فيما تقدم من «القواعد» بعض ما يتعلق بهاتين «الكلمتين» العظيمتين الجامعتين الفارقتين: شهادة أن لا إله إلا اللّه ، وشهادة أن محمداً عبده ورسوله صلى الله

---

(١) البخاري في مناقب الأنصار(٣٨٨٤)، ومسلم في الإيمان (٢٤/ ٣٩)، وأحمد ٥/ ٤٣٣، كلهم عن المسيب ابن حزن.

(٢) أحمد ١/ ٣٧، وابن ماجه في الأدب (٣٧٩٥) وفي الزوائد :« اختلف على الشعبي . فقيل : عنه هكذا . وقيل : عنه عن أبي طلحة عن أبيه . وقيل: عنه عن يحيى عن طلحة. وقيل: عنه عن طلحة مرسلا».

(٣) أحمد ٥/ ٢٣٣، ٢٤٧ وأبو داود في الجنائز (٣١١٧).

(٤) مسلم في الإيمان (٢٦/ ٤٣) وأحمد ١/ ٦٥، ٦٩.

(٥) البخاري في الإيمان (٢٥) ومسلم في الإيمان (٢١/ ٣٣-٣٦).

عليه وعلى آله وسلم تسليماً.

فأما ذكر «الاسم المفرد» فلم يشرع بحال ، وليس في الأدلة الشرعية ما يدل على استحبابه.

١٠/٥٥٩ وأما ما يتوهمه طائفة من غالطي المتعبدين في قوله تعالى: ﴿ قُلِ / اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ ﴾ [الأنعام: ٩١] ،ويتوهمون أن المراد قول هذا الاسم فخطأ واضح؛ ولو تدبروا ما قبل هذا تبين مراد الآية، فإنه سبحانه قال: ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوا أَنتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ﴾ [الأنعام: ٩١] أي : قل: الله أنزل الكتاب الذي جاء به موسى. فهذا كلام تام، وجملة إسمية مركبة من مبتدأ وخبر، حذف الخبر منها لدلالة السؤال على الجواب.

وهذا قياس مطرد في مثل هذا في كلام العرب كقوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُم﴾ الآية [الزمر: ٣٨] ، وقوله: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ [لَكُم](١) مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا(٢) أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ﴾ [النمل: ٦٠]،وكذلك ما بعدها وقوله: « قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم . سيقولون الله » على قراءة أبي عمرو ، وتقول في الكلام: من جاء؟ فتقول: زيد. ومن أكرمت ؟ فتقول: زيداً. وبمن مررت؟ فتقول : بزيد. فيذكرون الاسم الذي هو جواب من، ويحذفون المتصل به، لأنه قد ذكر في السؤال مرة، فيكرهون تكريره من غير فائدة بيان، لما في ذلك من التطويل والتكرير.

١٠/٥٦٠ / وأغرب من هذا ما قاله لي مرة شخص من هؤلاء الغالطين في قوله: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٧] قال المعنى :وما يعلم تأويل (هو) أي اسم «هو» الذي يقال فيه: «هو، هو». وصنف ابن عربي كتاباً في «الهو» فقلت له ـ وأنا إذ ذاك صغير جداً ـ: لو كان كما تقول لكتبت في المصحف مفصولة(تأويل هو) ولم تكتب موصولة، وهذا الكلام الذي قاله هذا معلوم الفساد بالاضطرار. وإنما كثير من غالطي المتصوفة لهم مثل هذه التأويلات الباطلة في الكتاب والسنة.

وقد يكون المعنى الذي يعنونه صحيحاً، لكن لا يدل عليه الكلام وليس هو مراد المتكلم، وقد لا يكون صحيحاً. فيقع الغلط تارة في الحكم،و تارة في الدليل كقول

(١) ما بين المعقوفين سقط من المطبوعة ، والصواب ما أثبتناه.

(٢) في المطبوعة :« فأحيا به الأرض بعد موتها» ، والصواب ما أثبتناه.

بعضهم: ﴿ أن رآه استغنى ﴾[العلق: ٧] أي : إن رأى ربه استغنى ، والمعني أنه ليطغى أن رأى نفسه استغنى، وكقول بعضهم: «فإن لم تكن تراه»[1] : يعني فإن فنيت عنك رأيت ربك. وليس هذا معنى الحديث ، فإنه لو أريد هذا لقيل: فإن لم تكن تره . وقد قيل: «تراه» ثم كيف يصنع بجواب الشرط ؟ وهو قوله: فإنه يراك؛ ثم إنه على قولهم الباطل تكون كان تامة. فالتقدير : فإن لم تكن : أي لم تقع، ولم تحصل . وهذا تقدير محال فإن العبد كائن موجود ليس بمعدوم. ولو أريد فناؤه عن هواه أو فناء شهوده للأغيار لم يعبر بنفي كونه؛ فإن هذا محال. ومتى كان المعنى صحيحاً والدلالة ليست مرادة فقد يسمى ذلك« إشارة».

/ وقد أودع الشيخ أبو عبد الرحمن السلمي«حقائق التفسير» من هذا قطعة. ١٠/٥٦١

وليس المقصود الآن الكلام في هذا فإنه باب آخر،وإنما الغرض بيان حكم ذكر الاسم وحده من غير كلام تام، وقد ظهر بالأدلة الشرعية أنه غير مستحب.

وكذلك بالأدلة العقلية الذوقية؛ فإن الاسم وحده لا يعطي إيماناً ولا كفراً، ولاهدى ولا ضلالاً، ولا علماً ولا جهلاً ، وقد يذكر الذاكر اسم نبي من الأنبياء، أو فرعون من الفراعنة، أو صنم من الأصنام، ولا يتعلق بمجرد اسمه حكم إلا أن يقرن به ما يدل على نفي أو إثبات، أو حب أو بغض ، وقد يذكر الموجود والمعدوم.

ولهذا اتفق أهل العلم بلغة العرب وسائر اللغات على أن الاسم وحده لا يحسن السكوت عليه، ولا هو جملة تامة ، ولا كلاماً مفيداً ولهذا سمع بعض العرب مؤذنا يقول: أشهد أن محمداً رسول الله. قال: فعل ماذا؟! فإنه لما نصب الاسم صار صفة، والصفة من تمام الاسم الموصوف ، فطلب بصحة طبعه الخبر المفيد؛ ولكن المؤذن قصد الخبر ولحن.

/ ولو كرر الإنسان اسم «الله» ألف ألف مرة لم يصر بذلك مؤمناً ، ولم يستحق ١٠/٥٦٢ ثواب الله ولا جنته ؛ فإن الكفار من جميع الأمم يذكرون الاسم مفرداً ، سواء أقروا به وبوحدانيته أم لا ؛ حتى إنه لما أمرنا بذكر اسمه كقوله : ﴿ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤] ، وقوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ [الأنعام: ١٢١]، وقوله: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ [الأعلى: ١] ، وقوله: ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ [الواقعة :٧٤، ٩٦، الحاقة: ٥٢] ونحو ذلك: كان ذكر اسمه بكلام تام مثل أن يقول :

---

(١) مسلم في الإيمان (٨/ ١).

بسم الله، أو يقول : سبحان ربي الأعلى، وسبحان ربي العظيم، ونحو ذلك . ولم يشرع ذكر الاسم المجرد قط، ولا يحصل بذلك امتثال أمر ،ولا [حل صيد][1] ولا ذبيحة ولا غير ذلك.

فإن قيل: فالذاكر أو السامع للاسم المجرد قد يحصل له وجد محبة، وتعظيم لله، ونحو ذلك.

قلت: نعم، ويثاب على ذلك الوجد المشروع، والحال الإيماني ،لا لأن مجرد الاسم مستحب، وإذا سمع ذلك حرك ساكن القلب، وقد يتحرك الساكن بسماع ذكر محرم أو مكروه، حتى قد يسمع المسلم من يشرك بالله، أو يسبه فيثور في قلبه حال وجد ومحبة لله بقوة نفرته / وبغضه لما سمعه، وقد قال الصحابة للنبي ﷺ : إن أحدنا ليجد في نفسه ما لأن يحترق حتى يصير حممة ،أو يخر من السماء إلى الأرض ،أحب إليه من أن يتكلم به. قال: «أو قد وجدتموه؟!» قالوا: نعم، قال: «ذاك صريح الإيمان»، وفي رواية: قال: «الحمد لله الذي رد كيده إلى الوسوسة»[2]. ١٠/٥٦٣

فالشيطان لما قذف في قلوبهم وسوسة مذمومة تحرك الإيمان الذي في قلوبهم بالكراهة لذلك، والاستعظام له، فكان ذلك صريح الإيمان، ولا يقتضى ذلك أن يكون السبب الذي هو الوسوسة مأموراً به.

والعبد ـ أيضاً ـ قد يدعوه داع إلى الكفر أو المعصية فيستعصم ويمتنع ويورثه ذلك إيمانا وتقوى ، وليس السبب مأموراً به ؛ وقد قال تعالى: ﴿ **الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ . فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ**﴾ الآية [آل عمران: ١٧٣، ١٧٤] ،فهذا الإيمان الزائد والتوكل كان سبب تخويفهم بالعدو وليس ذلك مشروعاً بل العبد يفعل ذنباً فيورثه ذلك توبة يحبه الله بها، ولا يكون الذنب مأموراً به، وهذا باب واسع جداً.

ففرق بين أن يكون نفس السبب موجباً للخير ومقتضياً، وبين / ألا يكون ؛ وإنما نشأ الخير من المحل . فالمأمور به من الكلمات الطيبات والأعمال الصالحات ، هي موجبة للخير والرحمة والثواب . وإذا اقترن بها قوة إيمان العبد وما يجده من حلاوة الإيمان وتذوقه من طعمه تضاعف الخير والرحمة والبركة ، وما ليس مأموراً به . إما من فعل العبد: ١٠/٥٦٤

(١) بالأصل كلمة لم تتضح لقدم الأصل ولعل ما بين المعقوفين هو المعنى المقصود.

(٢) مسلم في الإيمان (١٣٢/٢٠٩) ، وأبو داود في الأدب (٥١١١)، كلاهما عن أبي هريرة، وأبو داود في الأدب(٥١١١، ٥١١٢) عن ابن عباس .

وقوله: «حممة» :أي يصير أسود . انظر: القاموس، مادة «حمم».

محرمه ومكروهه ومباحه. وإما من فعل غيره معه: من الإنس والجن، وإما من الحوادث السمائية التي يصيبه بها الرب، إذا صادفت منه إيمانًا ويقينًا فحركت ذلك الإيمان واليقين، وازداد العبد بذلك إيمانا لم يكن ذلك مما يوجب أن تحب تلك الأسباب، أو تحمد أو يؤمر بها، إذا لم يكن كذلك، فإنها ليست مقتضية لذلك الخير، وإنما مقتضاها تحريك الساكن وطال ما جرت إلى شر وضرر.

ويشبه هذا الباب ذكر الحب المطلق والشوق المطلق، والوجل المطلق، وما يتضمن ذلك من نظم ونثر، فإن هذا من المجمل أيضًا : يشترك فيه المؤمن والكافر ، والبر والفاجر، فلذلك لم يشرعها اللّه ورسوله، ولم يأمر بها فإن اللّه إنما يأمر بالخير والعمل الصالح والبر وذلك ليس من هذا الباب، فإن شعر المحبين مشترك بين محب الإيمان ومحب الأوثان، ومحب النسوان، ومحب المردان، ومحب الأوطان، ومحب الأخدان.

/فثبت بما ذكرناه أن ذكر الاسم المجرد ليس مستحباً، فضلاً عن أن يكون هو ذكر الخاصة. ١٠/٥٦٥

وأبعد من ذلك ذكر«الاسم المضمر» وهو :«هو» . فإن هذا بنفسه لا يدل على معين، وإنما هو بحسب ما يفسره من مذكور أو معلوم فيبقى معناه بحسب قصد المتكلم ونيته؛ ولهذا قد يذكر به من يعتقد أن الحق الوجود المطلق. وقد يقول:«لا هو إلا هو» ويسرى قلبه في «وحدة الوجود» ومذهب فرعون والإسماعيلية وزنادقة هؤلاء المتصوفة المتأخرين بحيث يكون قوله:«هو» كقوله: « وجوده» . وقد يعني بقوله:« لا هو إلا هو» أي : أنه هو الوجود وأنه ما ثم خلق أصلاً ، وأن الرب والعبد والحق والخلق شيء واحد. كما بينته من مذهب« الاتحادية» في غير هذا الموضع.

ومن أسباب هذه الاعتقادات والأحوال الفاسدة الخروج عن الشرعة والمنهاج الذي بعث به الرسول إلينا ﷺ . فإن البدع هي : مبادئ الكفر ومظان الكفر . كما أن السنن المشروعة هي: مظاهر الإيمان ، ومقوية للإيمان؛ فإنه يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية. كما أخبر اللّه عن زيادته في مثل قوله: ﴿ **الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا** ﴾ [آل عمران: ١٧٣] ، وقوله: ﴿**أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا**﴾ [التوبة: ١٢٤] ، /وقوله: ﴿**هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ**﴾ [الفتح: ٤] ١٠/٥٦٦ وغير ذلك.

فإن قيل : إذا لم يكن هذا الذكر مشروعاً. فهل هو مكروه؟

قلت: أما في حق المغلوب فلا يوصف بكراهة؛ فإنه قد يعرض للقلب أحوال يتعسر عليه فيها نطق اللسان مع امتلاء القلب بأحوال الإيمان، وربما تيسر عليه ذكر الاسم المجرد

دون الكلمة التامة وهؤلاء يأتون على ما في قلوبهم من أحوال الإيمان وما قدروا عليه من نطق اللسان، فإن الناس في الذكر أربع طبقات.

إحداها: الذكر بالقلب واللسان، وهو المأمور به.

الثاني: الذكر بالقلب فقط، فإن كان مع عجز اللسان فحسن وإن كان مع قدرته فترك للأفضل.

الثالث: الذكر باللسان فقط، وهو كون لسانه رطبًا بذكر اللّه، وفيه حكاية التي لم تجد الملائكة فيه خيراً إلاحركة لسانه بذكر اللّه. ويقول اللّه تعالى: «أنا مع عبدي ما ذكرني وتحركت بي شفتاه»[1].

الرابع: عدم الأمرين وهو حال الخاسرين.

/ وأما مع تيسر الكلمة التامة فالاقتصار على مجرد الاسم مكرراً بدعة، والأصل في البدع الكراهة. ٥٦٧/ ١٠

وما نقل عن أبي يزيد والنوري والشبلي وغيرهم: من ذكر الاسم المجرد ، فمحمول على أنهم مغلوبون ، فإن أحوالهم تشهد بذلك، مع أن المشائخ الذين هم أصح من هؤلاء وأكمل لم يذكروا إلا الكلمة التامة، وعند التنازع يجب الرد إلى اللّه والرسول، وليس فعل غير الرسول حجة على الإطلاق. واللّه أعلم.

---

(١) أحمد ٢/ ٥٤٠ وابن ماجة في الأدب (٣٧٩٢).

/ وَقَالَ الشيْخُ ـ رَحِمَهُ اللَّهُ : ١٠/٥٦٨

فَصـــل

في الصراط المستقيم، في الزهد والعبادة والورع، في ترك المحرمات والشهوات، والاقتصاد، في العبادة. وإن لزوم السنة هو يحفظ من شر النفس والشيطان بدون الطرق المبتدعة، فإن أصحابها لابد أن يقعوا في الآصار والأغلال ، وإن كانوا متأولين ، فلابد لهم من اتباع الهوى، ولهذا سمى أصحاب البدع أصحاب الأهواء، فإن طريق السنة علم وعدل وهدي، وفي البدعة جهل وظلم، وفيها اتباع الظن وما تهوى الأنفس.

والرسول، ما ضل وما غوى ، والضلال: مقرون بالغي ، فكل غاو ضال، والرشد ضد الغي والهدى ضد الضلال، وهو مجانبة طريق الفجار وأهل البدع، كما كان السلف ينهون عنهما، قال تعالى: ﴿ **فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاَةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا** ﴾ [مريم:٥٩].

/ والغي في الأصل : مصدر غوي يغوي غياً، كما يقال: لوى يلوي ليًا. وهو ضد الرشد، كما قال تعالى: ﴿**وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً**﴾[الأعراف:١٤٦]. ١٠/٥٦٩

والرشد: العمل الذي ينفع صاحبه، والغي: العمل الذي يضر صاحبه، فعمل الخير رشد ، وعمل الشر غي، ولهذا قالت الجن: ﴿ **وَأَنَّا لا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا**﴾[الجن: ١٠]، فقابلوا بين الشر وبين الرشد، وقال في آخر السورة: ﴿**قُلْ إِنِّي لا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلا رَشَدًا** ﴾[الجن:٢١] ،ومنه الرشيد، الذي يسلم إليه ماله. وهو الذي يصرف ماله فيما ينفع لا فيما يضر.

وقال الشيطان: ﴿**لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ . إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ**﴾ [ص:٨٢، ٨٣] ، وهو أن يأمرهم بالشر الذي يضرهم فيطيعونه، كما قال تعالى: ﴿ **وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي**﴾[إبراهيم:٢٢]، وقال: ﴿ **وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ** ﴾ إلى أن قال: ﴿**فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ . وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ**﴾ [الشعراء:٩١ـ٩٥]، وقال: ﴿**قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا** ﴾[القصص:٦٣]، وقال: ﴿**مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى** ﴾ [النجم:٢].

ثم إن الغي ، إذا كان اسماً لعمل الشر الذي يضر صاحبه، فإن عاقبة العمل أيضًا

١٠/٥٧٠ تسمى غيًا، كما أن عاقبة الخير تسمى رشداً، كما / يسمى عاقبة الشر شراً، وعاقبة الخير خيراً، وعاقبة الحسنات حسنات، وعاقبة السيئات سيئات.

فالحسنات والسيئات، في كتاب الله يراد بها أعمال الخير وأعمال الشر، كما يراد بها النعم والمصائب والجزاء من جنس العمل، فمن عمل خيراً وحسنات لقي خيراً وحسنات، ومن عمل شراً وسيئات لقي شراً وسيئات. كذلك من عمل غياً لقي غيًا، وترك الصلاة واتباع الشهوات غي يلقي صاحبه غياً. فلهذا قال الزمخشري : كل شر عند العرب غي، وكل خير رشاد . كما قيل:

فمن يلق خيراً يحمد الناس أمره ومن يغو لا يعدم على الغي لائماً

وقال الزجاج : جزاؤه غي ، لقوله: ﴿يَلْقَ أَثَامًا﴾ [الفرقان:٦٨]، أي مجازات آثام. وفي الحديث المأثور: إن غيا واد في جهنم تستعيذ منه أوديتها[١]، وهذا تعبير عن ملاقات الشر، وقال سبحانه: ﴿أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ﴾[مريم:٥٩]، فإن الصلاة فيها إرادة وجه الله. كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ [الأنعام: ٥٢]، أي يصلون صلاة الفجر والعصر. والداعي يقصد ربه ويريده، فتكون القلوب في هذه الأشياء مريدة لربها محبة له.

١٠/٥٧١ / واتباع الشهوات: هو اتباع ما تشتهيه النفس، فإن الشهوات، جمع شهوة ، والشهوة هي في الأصل مصدر، ويسمي المشتهي شهوة. تسمية للمفعول باسم المصدر. قال تعالى: ﴿ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا﴾ [النساء:٢٧] فجعل التوبة في مقابلة اتباع الشهوات، فإنه يريد أن يتوب علينا،أي فالله يحب لنا ذلك ويرضاه ويأمر به ، ﴿وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ﴾ وهم الغاوون﴿أَن تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا﴾ يعدل بكم عن الصراط المستقيم إلى اتباع الشهوات عدولاً عظيماً،فإن أصل الميل العدول، فلابد منه للذين يتبعون الشهوات، كما قال ﷺ:«استقيموا ولن تحصوا ،واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة، ولا يحافظ على الوضوء إلا مؤمن» رواه أحمد وابن ماجه من حديث ثوبان[٢].

فأخبر أنا لا نطيق الاستقامة أو ثوابها إذا استقمنا، وقال: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ﴾ [النساء:١٢٩]، فقوله: كل الميل أي: يريد نهاية الميل، يريد الزيغ عن الطريق ، والعدول عن سواء الصراط إلى نهاية الشر، بل إذا بليت بذلك فتوسط ، وعد إلى الطريق بالتوبة.

(١) الطبري في تفسيره ١٦/ ٧٥ ، والدر المنثور ٤/ ٢٧٩.
(٢) أحمد ٥/ ٢٧٧، ٢٨٢ وابن ماجه في الطهارة (٢٧٧).

كما في الحديث عن النبي ﷺ :« ميل المؤمن كميل الفرس في آخيته يحول ثم يرجع إلى آخيته. كذلك المؤمن يحول ثم يرجع / إلى ربه»[1] ،قال تعالى: ﴿ وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ ١٠/٥٧٢
مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ إلى قوله: ﴿وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣ـ ١٣٦]، فلم يقل: لا يظلمون ولا يذنبون، بل قال: ﴿إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ﴾ [آل عمران: ١٣٥]، أي بذنب آخر غير الفاحشة، فعطف العام على الخاص. كما قال موسى: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾ [القصص: ١٦]، وقالت بلقيس : ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾ [النمل: ٤٤]، وقال تعالي عموماً عن أهل القرى المهلكة: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ﴾ [هود: ١٠١]، فظلموا أنفسهم بارتكابهم ما نهوا عنه، وبعصيانهم لأنبيائهم، وبتركهم التوبة إلى ربهم.

وقوله تعالى: ﴿ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٣٥]؛ ولهذا قال : ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ ﴾ [النساء: ٢٧]، ثم قال: ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا ﴾[النساء: ٢٨] . قال مجاهد وغيره: يتبعون الشهوات الزنا، وقال ابن زيد: هم أهل الباطل. وقال السدي: هم اليهود والنصارى والجميع حق، فإنهم قد يتبعون الشهوات مع الكفر، وقد يكون مع الاعتراف بأنها معصية.

ثم ذكر أنه خلق الإنسان ضعيفاً، وسياق الكلام يدل على أنه ضعيف عن ترك الشهوات. فلابد له من شهوة مباحة يستغني بها عن المحرمة، ولهذا قال طاوس ومقاتل: ضعيف في قلة الصبر عن النساء، وقال الزجاج وابن كيسان: ضعيف العزم عن قهر الهوى. وقيل: ضعيف في أصل الخلقة، لأنه خلق من ماء مهين، يروي ذلك / عن الحسن، لكن ١٠/٥٧٣
لابد أن يوجد مع ذلك أنه ضعيف عن الصبر؛ ليناسب ما ذكر في الآية، فإنه قال: ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ﴾ وهو تسهيل التكليف بأن يبيح لكم ما تحتاجون إليه ولا تصبروا عنه. كما أباح نكاح الفتيات، وقد قال قبل ذلك: ﴿لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنكُمْ وَأَن تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَّكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النساء: ٢٥] .

فهو ـ سبحانه ـ مع إباحته نكاح الإماء عند عدم الطول، وخشية العنت ، قال: ﴿وَأَن تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [النساء: ٢٥]، فدل ذلك على أنه يمكن الصبر مع خشية العنت، وأنه

---

(١) أحمد ٣/٣٨، ٥٥، وأبو يعلي (١١٠٦)، وقال الهيثمي في المجمع ١٠/ ٢٠٤: «رجالهما رجال الصحيح غير أبي سليمان الليثي وعبد الله بن الوليد التميمي وكلاهما ثقة». كلهم عن أبي سعيد الخدري.
وقوله: «آخيته» : هي حُبُل أو عويد يعرض في الحائط، ويدفن طرفاه فيه، ويصير وسطه كالعروة وتُشَدّ فيها الدابة انظر: النهاية في غريب الحديث ١/ ٢٩ .

ليس النكاح كإباحة الميتة عند المخمصة، فإن ذلك لا يمكن الصبر عنه.

وكذلك من أباح الاستمناء، عند الضرورة فالصبر عن الاستمناء أفضل، فقد روى عن ابن عباس : أن نكاح الإماء خير منه، وهو خير من الزنا، فإذا كان الصبر عن نكاح الإماء أفضل فعن الاستمناء بطريق الأولى أفضل.

لا سيما وكثير من العلماء أو أكثرهم يجزمون بتحريمه مطلقاً ، وهو أحد الأقوال في مذهب أحمد. واختاره ابن عقيل في المفردات والمشهور عنه ـ يعني عن أحمد ـ أنه محرم إلا إذا خشي العنت. والثالث أنه مكروه إلا إذا خشي العنت. فإذا كان اللّه قد قال في نكاح الإماء: ﴿ وَأَن / تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ ففيه أولى. وذلك يدل على أن الصبر عن كلاهما ممكن. ١٠/٥٧٤

فإذا كان قد أباح ما يمكن الصبر عنه ، فذلك لتسهيل التكليف ، كما قال تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا ﴾ .

و الاستمناء لا يباح عند أكثر العلماء سلفاً وخلفاً سواء خشي العنت أو لم يخش ذلك. وكلام ابن عباس وما روى عن أحمد فيه إنما هو لمن خشي العنت، وهو الزنا واللواط خشية شديدة خاف على نفسه من الوقوع في ذلك؛ فأبيح له ذلك لتكسير شدة عنته وشهوته.

وأما من فعل ذلك تلذذاً أو تذكراً أو عادة، بأن يتذكر في حال استمنائه صورة كأنه يجامعها. فهذا كله محرم لا يقول به أحمد، ولا غيره وقد أوجب فيه بعضهم الحد والصبر عن هذا من الواجبات لا من المستحبات.

وأما الصبر عن المحرمات فواجب ، وإن كانت النفس تشتهيها وتهواها. قال تعالى: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ﴾ [النور:٣٣]، و الاستعفاف: هو ترك المنهي عنه. كما في الحديث / الصحيح عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ أنه قال:« من يستعفف يعفه اللّه، ومن يستغن يغنه اللّه، ومن يتصبر يصبره اللّه، وما أعطى أحد عطاء خيراً وأوسع من الصبر»[1]. ١٠/٥٧٥

فالمستغني ، لا يستشرف بقلبه. و المستعف: هو الذي لا يسأل الناس بلسانه، والمتصبر: هو الذي لا يتكلف الصبر. فأخبر أنه من يتصبر يصبره اللّه . وهذا كأنه في

(١) البخاري في الرقاق (٦٤٧٠)، ومسلم في الزكاة (١٠٥٣/ ١٢٤) ، وأبو داود في الزكاة (١٦٤٤) ، والترمذي في البر والصلة (٢٠٢٤) وقال: «حسن صحيح»، وأحمد ٣/ ٣.

سياق الصبرعلى الفاقة ، بأن يصبر على مرارة الحاجة ، لا يجزع مما ابتلى به من الفقر، وهو الصبر في البأساء والضراء. قال تعالى: ﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ﴾ [البقرة: ١٧٧] .

والضراء: المرض . وهو الصبر على ما ابتلى به من حاجة ومرض وخوف. والصبر على ما ابتلى به باختياره ،كالجهاد ، فإن الصبر عليه أفضل من الصبر على المرض الذي يبتلى به بغير اختياره، ولذلك إذا ابتلى بالعنت في الجهاد فالصبر على ذلك أفضل من الصبر عليه في بلده؛ لأن هذا الصبر من تمام الجهاد. وكذلك لو ابتلى في الجهاد بفاقة، أو مرض حصل بسببه كان الصبر عليه أفضل. كما قد بسط هذا في مواضع.

وكذلك ما يؤذي الإنسان به في فعله للطاعات ،كالصلاة، والأمر بالمعروف،/ والنهي ١٠/٥٧٦
عن المنكر، وطلب العلم من المصائب، فصبره عليها أفضل من صبره على ما ابتلى به بدون ذلك، وكذلك إذا دعته نفسه إلى محرمات: من رئاسة ، وأخذ مال، وفعل فاحشة كان صبره عنه أفضل من صبره على ماهو دون ذلك، فإن أعمال البر، كلما عظمت كان الصبر عليها أعظم مما دونهما.

فإن في العلم، والإمارة، والجهاد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والصلاة، والحج ، والصوم ، والزكاة، من الفتن النفسية وغيرها ما ليس في غيرها. ويعرض في ذلك ميل النفس إلى الرئاسة والمال والصور. فإذا كانت النفس غير قادرة على ذلك لم تطمع فيه ، كما تطمع مع القدرة ، فإنها مع القدرة تطلب تلك الأمور المحرمة ، بخلاف حالها بدون القدرة فإن الصبر مع القدرة جهاد، بل هو من أفضل الجهاد . وأكمل من ثلاثة أوجه:

أحدها : أن الصبر عن المحرمات،أفضل من الصبر على المصائب.

الثاني : أن ترك المحرمات مع القدرة عليها، وطلب النفس لها ، أفضل من تركها بدون ذلك.

الثالث : أن طلب النفس لها إذا كان بسبب أمر ديني ـ كمن / خرج لصلاة، أو طلب ١٠/٥٧٧
علم، أو جهاد ، فابتلى بما يميل إليه من ذلك فإن صبره عن ذلك ـ يتضمن فعل المأمور وترك المحظور، بخلاف ما إذا مالت نفسه إلى ذلك بدون عمل صالح ، ولهذا كان يونس ابن عبيد يوصي بثلاث يقول: لا تدخل على سلطان ، وإن قلت: آمره بطاعة الله. ولا تدخل علي امرأة : وإن قلت: أعلمها كتاب الله، ولا تصغ أذنك إلى صاحب بدعة، وإن قلت أرد عليه.

فأمره بالاحتراز من أسباب الفتنة ، فإن الإنسان إذا تعرض لذلك فقد يفتتن ولا يسلم.

فإذا قدر أنه ابتلى بذلك بغير اختياره أو دخل فيه باختياره، وابتلى، فعليه أن يتقى الله ويصبر ويخلص ويجاهد. وصبره على ذلك وسلامته مع قيامه بالواجب، من أفضل الأعمال، كمن تولى ولاية وعدل فيها، أو رد على أصحاب البدع بالسنة المحضة، ولم يفتنوه، أو علم النساء الدين على الوجه المشروع من غير فتنة.

لكن الله إذا ابتلى العبد وقدر عليه أعانه ، وإذا تعرض العبد بنفسه إلى البلاء وكله الله إلى نفسه . كما قال النبي ﷺ لعبد الرحمن بن سمرة: «لا تسأل الإمارة فإنك إن أعطيتها عن مسألة ، وكلت إليها . وإن أعطيتها عن غير مسألة، أعنت عليها»[1] وكذلك
١٠/٥٧٨ / قال في الطاعون: « إذا وقع ببلد وأنتم بها، فلا تخرجوا فراراً منه، وإذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه»[2] فمن فعل ما أمره الله به فعرضت له فتنة من غير اختياره، فإن الله يعينه عليها بخلاف من تعرض لها.

لكن باب التوبة مفتوح، فإن الرجل قد يسأل الإمارة فيوكل إليها، ثم يندم فيتوب من سؤاله فيتوب الله عليه ويعينه، إما على إقامة الواجب ، وإما على الخلاص منها، وكذلك سائر الفتن. كماقال: ﴿ **قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا**﴾ [الزمر:٥٣] ، وهذه الأمور تحتاج إلى بسط لا يتسع له هذا الموضع.

والمقصود أن الله سبحانه يريد أن يبين لنا، ويهدينا سنن الذين من قبلنا الذين قال فيهم: ﴿ **أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ** ﴾[الأنعام:٩٠]، وهم الذين أمرنا أن نسأله الهداية لسبيلهم في قوله: ﴿**اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ . صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ** ﴾ [الفاتحة:٦، ٧] فهو يحب لنا ويأمرنا أن نتبع صراط هؤلاء ، وهو سبيل من أناب إليه، فذكر هنا ثلاثة أمور: البيان، والهداية ، والتوبة.

وقيل : المراد بالسنن هنا سنن أهل الحق والباطل، أي : يريد أن يبين لنا سنن هؤلاء
١٠/٥٧٩ وهؤلاء، فيهدي عباده المؤمنين إلى الحق،/ ويضل آخرين، فإن الهدى والضلال إنما يكون بعد البيان. كما قال: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**﴾[إبراهيم:٤]، وقال: ﴿**وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ**﴾[التوبة:١١٥].

(١، ٢) سبق تخريجهما ص ٢٩٥.

فتكون ﴿سُنَنَ﴾ [النساء: ٢٦]، متعلقاً ببيين يعني سنن أهل الباطل لا بيهدي، وأهل الحق متعلق بقوله: ويهديكم. وقال الزجاج: السنن الطرق، فالمعنى يدلكم على طاعته، كما دل الأنبياء وتابعيهم. وهذا أولى، لأنه قد يقدم فعلين فلا يجعل الأول هوالعامل وحده، بل العامل إما الثاني وحده. وإما الاثنان، كقوله: ﴿آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾ [الكهف: ٩٦].

أو إذا أريد هذا التقدير: يبين لكم سنن الذين من قبلكم، ويهديكم سنناً. فدل على أنه يهدينا سننهم. والمراد بذلك سنن أهل الحق، بخلاف قوله: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ﴾ فإنه قال بعدها: ﴿فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٧]، فإنه أراد تعريف عقوبة الظالمين بالعيان، وهنا فأنزل علينا من القرآن ما يهدينا به سنن الذين من قبلنا، وهم الذين أنعم الله عليهم. وذكر ثلاثة أمور: التبيين، والهدى، والتوبة.

لأن الإنسان أولا يحتاج إلى معرفة الخير والشر، وما أمر به وما نهى عنه، ثم يحتاج بعد ذلك / إلى أن يهدي، فيقصد الحق ويعمل به دون الباطل. وهو سنن الأنبياء ١٠/٥٨٠
والصالحين. ثم لابد له بعد ذلك من الذنوب، فيريد أن يتطهر منها بالتوبة فهو محتاج إلى العلم والعمل به. وإلى التوبة مع ذلك. فلابد له من التقصير، أو الغفلة في سلوك تلك السنن التي هداه الله إليها. فيتوب منها بما وقع من تفريط في كل سنة من تلك السنن. وهذه السنن: تدخل فيها الواجبات والمستحبات، فلابد للسالك فيها من تقصير وغفلة، فيستغفر الله، ويتوب إليه. فإن العبد لو اجتهد مهما اجتهد لا يستطيع أن يقوم لله بالحق الذي أوجبه عليه، فما يسعه إلا الاستغفار والتوبة عقيب كل طاعة.

وقد يقال: الهداية، هنا البيان والتعريف، أي: يعرفكم سنن الذين من قبلكم، من أهل السعادة والشقاوة؛ لتتبعوا هذه وتجتنبوا هذه، كما قال تعالى: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ١٠]، قال علي وابن مسعود: سبيل الخير والشر. وعن ابن عباس: سبيل الهدى والضلال. وقال مجاهد: سبيل السعادة والشقاوة، أي فطرناه على ذلك، وعرفناه إياه، والجميع واحد. والنجدان الطريقان الواضحان، والنجد المرتفع من الأرض، فالمعنى ألم نعرفه طريق الخير والشر ونبينه له، كتبيين الطريقين العاليين، لكن الهدى والتبيين والتعريف
في هذه الآية يشترك / فيه بنو آدم، ويعرفونه بعقولهم. ١٠/٥٨١

وأما طريق من تقدم من الأنبياء، فلا بد من إخبار الله تعالى عنها، كما قال: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَذَا﴾[هود: ٤٩]، لكن يجاب عن هذا بأنه لو أريد هذا المعنى، لقال: يريد الله ليبين لكم سنن الذين من قبلكم،

ولم يحتج أن يذكر الهدى، إذا كان المعنى واحداً ، فلما ذكر أنه يريد التبيين والهدي ، علم أن هذا غير هذا، فالتبيين: التعريف والتعليم، والهدى: هو الأمر والنهي ، وهو الدعاء إلى الخير. كما قال تعالى: ﴿**وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ**﴾ [الرعد:٧] ، أي داع يدعوهم إلى الخير. كما قال تعالى: ﴿**وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ**﴾ [الشورى :٥٢]، أي تدعوهم إليه دعاء تعليم.

وهداه هنا يتعدى بنفسه، لأن التقدير: ويلزمكم سنن الذين من قبلكم، فلا تعدلوا عنها، وليس المراد هنا بالهدى الإلهام. كما في قوله: ﴿**اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ**﴾ لكونه لو أراد ذلك لوقع، ولم يكن فينا ضال، بل هذه إرادة شرعية أمرية بمعنى المحبة والرضا، ولهذا قال الزجاج : يريد أن يدلكم على ما يكون سبباً لتوبتكم ، فعلق الإرادة بفعل نفسه. فإن الزجاج ظن الإرادة في القرآن ليست إلا كذلك، وليس كما ظن ، بل الإرادة المتعلقة بفعله يكون مرادها كذلك ، فإنه / ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن . وأما الإرادة ١٠/٥٨٢
الموجودة في أمره وشرعه، فهو كقوله: ﴿**مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ**﴾ الآية [المائدة:٦]، وقوله: ﴿**إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ**﴾ [الأحزاب:٣٣]، ونحو ذلك.

فهذه إرادته لما أمر به ، بمعنى أنه يحبه ويرضاه، ويثيب فاعله، لا بمعنى أنه أراد أن يخلقه، فيكون كما قال: ﴿**فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا**﴾ الآية [الأنعام:١٢٥] .

وكما قال نوح: ﴿**وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ**﴾ [هود:٣٤].

فهذه إرادة لما يخلقه ويكونه. كما يقول المسلمون: ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، وهذه الإرادة متعلقة بكل حادث، والإرادة الشرعية الأمرية لا تتعلق إلا بالطاعات، كما يقول الناس لمن يفعل القبيح: يفعل شيئًا ما يريده الله، مع قولهم : ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن. فإن هذه الإرادة نوعان . كما قد بسط في موضع آخر.

وقد يراد بالهدى الإلهام، ويكون الخطاب للمؤمنين المطيعين الذين / هداهم الله إلى ١٠/٥٨٣
طاعته، فإن الله تعالى أراد أن يتوب عليهم ويهديهم، فاهتدوا، ولولا إرادته لهم ذلك لم يهتدوا، كما قالوا: ﴿**الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ**﴾[الأعراف:٤٣].

لكن الخطاب في الآية لجميع المسلمين، كالخطاب بآية الوضوء. والخطاب لأهل البيت بقوله: ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ﴾ [الأحزاب: ٣٣] ؛ولهذا يهدد من لم يطعه. وكما في الصيام :﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥] ، فهذه إرادة شرعية أمرية بمعنى المحبة والرضا، لا إرادة الخلق المستلزمة للمراد، لأنه لو كان كذلك لم تكن الآية خطاباً ،إلا لمن أخذ باليسر، ولمن فعل ما أمر به، وكان من تخلف عن ذلك لا يدخل تحت الأمر والنهي الذي في الآية، وليس كذلك. بل الحكم الشرعي لازم لجميع المسلمين، فمن أطاع أثيب ومن عصى عوقب، والذين أطاعوه إنما أطاعوه بهداه لهم، هدي الإلهام، والإعانة بأن جعلهم مهتدين. كما أنه هو الذي جعل المصلي مصلياً، والمسلم مسلماً.

ولو كانت الإرادة هنا من الإنسان مستلزمة لوقوع المراد لم يقل : ﴿وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيماً﴾ [النساء: ٢٧]، فإنه حينئذ لا تأثير لإرادة هؤلاء، بل وجودها وعدمها سواء. كما في قول نوح: ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَن / يُغْوِيَكُمْ﴾ [هود: ٣٤]، فإن ما شاء الله كان، وإن لم يشأ الناس، وما لم يشأ لم ١٠/٥٨٤
يكن، وإن شاءه الناس.

والمقصود بالآية تحذيرهم من متابعة الذين يتبعون الشهوات. والمعنى : إني أريد لكم الخير الذي ينفعكم، وهؤلاء يريدون لكم الشر الذي يضركم، كالشيطان الذي يريد أن يغويكم ، وأتباعه هم أهل الشهوات فلا تتخذوه وذريته أولياء من دوني ، بل اسلكوا طرق الهدي والرشاد، وإياكم وطرق الغي والفساد. كما قال تعالى: ﴿ فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴾ الآيات [طه: ١٢٣] .

وقوله: ﴿يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ﴾ [النساء: ٢٧]، في الموضعين، فاتباع الشهوة من جنس اتباع الهوى، كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ﴾ [القصص: ٥٠] ، وقال: ﴿ وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ [المؤمنون: ٧١] ، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ﴾ [المائدة: ٧٧]، وقال تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ [محمد: ١٤]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الجاثية: ١٨]، وهذا في القرآن كثير.

والهوى: مصدر هوى يهوي هوى ، ونفس المهوي يسمى هوى ما يهوى، فاتباعه كاتباع السبيل. كما قال تعالى: ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا / أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ ﴾ وكما في لفظ ١٠/٥٨٥

الشهوة، فاتباع الهوى يراد به نفس مسمى المصدر، أي اتباع إرادته ومحبته التي هي هواه واتباع الإرادة: هو فعل ما تهواه النفس، كقوله تعالى: ﴿ **واتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ** ﴾ [لقمان: ١٥]، وقوله: ﴿**وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ**﴾ [الأنعام: ١٥٣]، وقال: ﴿**وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ**﴾ [الأعراف: ٣]، فلفظ الاتباع يكون للآمر الناهي، وللأمر والنهي، وللمأمور به والمنهي عنه، وهو الصراط المستقيم.

كذلك يكون للهوى أمر ونهي، وهو أمر النفس ونهيها، كما قال تعالى: ﴿ **إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ** ﴾ [يوسف: ٥٣]، ولكن ما يأمر به من الأفعال المذمومة، فأحدها مستلزم للآخر، فاتباع الأمر هو فعل المأمور، واتباع أمر النفس هو فعل ما تهواه، فعلى هذا يعلم أن اتباع الشهوات، واتباع الأهواء هو اتباع شهوة النفس، وهواها، وذلك بفعل ما تشتهيه وتهواه.

بل قد يقال: هذا هوالذي يتعين في لفظ اتباع الشهوات والأهواء، لأن الذي يشتهي ويهوى، إنما يصيرموجوداً بعد أن يشتهي ويهوى، وإنما يذم الإنسان إذا فعل ما يشتهي ويهوى عند وجوده، / فهو حينئذ قد فعل، ولا ينهى عنه بعد وجوده، ولا يقال لصاحبه: لا تتبع هواك. ١٠/٥٨٦

وأيضًا فالفعل المراد المشتهى، الذي يهواه الإنسان: هو تابع لشهوته وهواه، فليست الشهوة والهوي تابعة له، فاتباع الشهوات هو اتباع شهوة النفس، وإذا جعلت الشهوة بمعنى المشتهى كان مع مخالفة الأصل يحتاج إلى أن يجعل في الخارج ما يشتهي، والإنسان يتبعه كالمرأة المطلوبة، أو الطعام المطلوب، وإن سميت المرأة شهوة والطعام أيضًا، كما في قوله ﷺ: « كل عمل ابن آدم له إلا الصيام فإنه لي، وأنا أجزي به، يدع طعامه وشرابه وشهوته من أجلي» (١) أي: يترك شهوته، وهو إنما يترك ما يشتهيه كما يترك الطعام، لا أنه يدع طعامه بترك الشهوة الموجودة في نفسه، فإن تلك مخلوقة فيه مجبول عليها، وإنما يثاب إذا ترك ما تطلبه تلك الشهوة.

وحقيقة الأمر، أنهما متلازمان، فمن اتبع نفس شهوته القائمة بنفسه اتبع ما يشتهيه، وكذلك من اتبع الهوى القائم بنفسه اتبع ما يهواه، فإن ذلك من آثار الإرادة، واتباع الإرادة هو امتثال أمرها، وفعل ما تطلبه، كالمأمور الذي يتبع أمر أميره، ولابد أن يتصور مراده الذي يهواه ويشتهيه في نفسه ويتخيله قبل فعله. فيبقى ذلك المثال كالإمام مع المأموم يتبعه حيث كان، وفعله في الظاهر / تبع لاتباع الباطن، فتبقى صورة المراد المطلوب ١٠/٥٨٧

---

(١) البخاري في الصوم (١٩٠٤) والتوحيد (٧٤٩٢)، ومسلم في الصيام (١١٥١/ ١٦٤) كلاهما عن أبي هريرة.

المشتهي التي في النفس هي المحركة للإنسان الآمرة له.

ولهذا يقال: العلة الغائية علة فاعلية ، فإن الإنسان للعلة الغائية ـ بهذا التصور والإرادة ـ صار فاعلاً للفعل ، وهذه الصورة المرادة المتصورة في النفس هي التي جعلت الفاعل فاعلاً ، فيكون الإنسان متبعاً لها، والشيطان يمده في الغي ، فهو يقوي تلك الصورة ويقوي أثرها ويزين للناس اتباعها، وتلك الصورة تتناول صورة العين المطلوبة ـ كالمحبوب من الصور والطعام والشراب ـ ويتناول نفس الفعل الذي هو المباشر لذلك المطلوب المحبوب، والشيطان والنفس تحب ذلك، وكلما تصور ذلك المحبوب في نفسه أراد وجوده في الخارج، فإن أول الفكر آخر العمل، وأول البغية آخر الدرك.

ولهذا يبقى الإنسان عند شهوته، وهواه أسيراً لذلك، مقهوراً تحت سلطان الهوى، أعظم من قهر كل قاهر، فإن هذا القاهر الهوائي، القاهر للعبد، هو صفة قائمة بنفسه، لايمكنه مفارقته البتة ، والصورة الذهنية تطلبها النفس، فإن المحبوب تطلب النفس أن تدركه، وتمثله لها في نفسها، فهو متبع للإرادة . وإن كانت الذهنية والتزين من الزين والمراد التصور في نفسه. والمشتهى الموجود في الخارج له محركان: التصور والمشتهى، هذا يحركه تحريك طلب وأمر، وهذا يأمره أن يتبع / طلبه وأمره، فاتباع الشهوات والأهواء ٥٨٨/ ١٠
يتناول هذا كله، بخلاف كل قاهر ينفصل عن الإنسان فإنه يمكنه مفارقته مع بقاء نفسه على حالها، وهذا إنما يفارقه بتغير صفة نفسه.

ولهذا قال النبي ﷺ : «ثلاث مهلكات: شح مطاع، وهوي متبع، وإعجاب المرء بنفسه. وثلاث منجيات: خشية اللّه في السر والعلانية، والقصد في الفقر والغنى، وكلمة الحق في الغضب والرضا » (١).

وقوله في الحديث: هوي متبع، فيه دليل على أن المتبع هو ما قام في النفس . كقوله: في الشح المطاع، وجعل الشح مطاعاً، لأنه هو الآمر، وجعل الهوى متبعاً، لأن المتبع قد يكون إماماً يقتدى به ولا يكون آمراً. وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: «إياكم والشح. فإن الشح أهلك من كان قبلكم، أمرهم بالبخل فبخلوا، وأمرهم بالظلم فظلموا، وأمرهم بالقطيعة فقطعوا» (٢). فبين أن الشح يأمر بالبخل والظلم والقطيعة، فالبخل ، منع منفعة الناس بنفسه وماله، والظلم، هو الاعتداء عليهم.

فالأول هو التفريط فيما يجب، فيكون قد فرط فيما يجب، واعتدى عليهم بفعل ما يحرم وخص قطيعة الرحم بالذكر إعظاماً لها؛ لأنها تدخل / في الأمرين المتقدمين قبلها. ٥٨٩/ ١٠

(١) الطبراني في الأوسط (٥٤٥٢) وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد ١/ ٩٥ وقال: « رواه الطبراني في الأوسط وفيه ابن لهيعة ومن لا يعرف».

(٢) مسلم في البر والصلة (٥٦/٢٥٧٨) ولم أجده في البخاري.

وقال المفسرون في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ﴾ [الحشر:٩]، هو ألا يأخذ شيئًا مما نهاه الله عنه، ولا يمنع شيئًا أمره الله بأدائه، فالشح يأمر بخلاف أمرالله ورسوله. فإن الله ينهى عن الظلم، ويأمر بالإحسان، والشح يأمر بالظلم، وينهى عن الإحسان.

وقد كان عبد الرحمن بن عوف يكثر في طوافه بالبيت، وبالوقوف بعرفة أن يقول: اللّهم قني شح نفسي ، فسئل عن ذلك ، فقال: إذا وقيت شح نفسي، وقيت الظلم والبخل والقطيعة. وفي رواية عنه قال: إني أخاف أن أكون قد هلكت، قال: وماذاك؟ قال: أسمع الله يقول: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ﴾ ، وأنا رجل شحيح لا يكاد يخرج من يدي شيء، فقال: ليس ذاك بالشح الذي ذكره الله في القرآن إنما الشح أن تأكل مال أخيك ظلماً، وإنما يكن بالبخل وبئس الشيء البخل.

وقد ذكر تعالى الشح في سياق ذكر الحسد والإيثار في قوله: ﴿وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ ، ثم قال: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر:٩]، فمن وقى شح نفسه لم يكن حسوداً باغياً على المحسود والحسد أصله بغض المحسود.

١٠/٥٩٠ / والشح يكون في الرجل مع الحرص، وقوة الرغبة في المال ، وبغض للغير وظلم له، كما قال تعالى: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلاَّ قَلِيلاً . أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ﴾ الآيات ـ إلى قوله : ﴿أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَٰئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ﴾ [الأحزاب:١٨، ١٩]، فشحهم على المؤمنين، وعلى الخير يتضمن كراهيته وبغضه، وبغض الخير يأمر بالشر، وبغض الإنسان يأمر بظلمه، وقطيعته كالحسد، فإن الحاسد يأمر حاسده بظلم المحسود وقطيعته ، كابني آدم وإخوة يوسف.

فالحسد والشح، يتضمنان بغضاً وكراهية، فيأمران بمنع الواجب وبظلم ذلك الشخص، فإن الفعل صدر فيه عن بغض ، بخلاف الهوى فإن الفعل صدر فيه عن حب أحب شيئًا فاتبعه ففعله، وذلك مقصوده أمر عدمي والعدم لا ينفع . ولكن ذاك القصد أمر بأمر وجودي، فأطيع أمره.

وابن مسعود جعل البخل خارجاً عن الشح والنبي ﷺ جعل الشح يأمر بالبخل.

ومن الناس من يقول: الشح، والبخل سواء . كما قال ابن جرير: الشح في كلام العرب هو البخل، ومنع الفضل من المال. وليس / كما قال: بل ما قاله النبي ﷺ وابن ١٠/٥٩١ مسعود أحق أن يتبع ، فإن البخيل قد يبخل بالمال محبة لما يحصل له به من اللذة والتنعم، وقد لا يكون متلذذاً به ولا متنعماً بل نفسه تضيق عن إنفاقه وتكره ذلك حتي

يكون يكره، أن ينفع نفسه منه مع كثرة ماله ، وهذا قد يكون مع التذاذه بجمع المال ومحبته لرؤيته . وقد لا يكون هناك لذة أصلا ، بل يكره أن يفعل إحساناً إلى أحد حتى لو أراد غيره أن يعطي كره ذلك منه بغضًا للخير لا للمعطي ولا للمعطي ، بل بغضًا منه للخير وقد يكون بغضاً وحسداً للمعطي ، أو للمعطي وهذا هو الشح وهذا هو الذي يأمر بالبخل قطعاً ، ولكن كل بخل يكون عن شح ، فكل شحيح بخيل وليس كل بخيل شحيحاً.

قال الخطابي: الشح أبلغ في المنع من البخل، والبخل إنما هو من أفراد الأمور وخواص الأشياء، والشح عام، فهو كالوصف اللازم للإنسان من قبل الطبع والجبلة.

وحكى الخطابي عن بعضهم أنه قال: البخل: أن يظن الإنسان بماله ،والشح: أن يضن بماله ومعروفه، وقيل :الشح: أن يشح بمعروف غيره على غيره، و البخل: أن يبخل بمعروفه على غيره والذين يتبعون الشهوات، ويتبعون أهواءهم يحبون ذلك ويريدونه، فاتبعوا / محبتهم وإرادتهم من غير علم، فلم ينظروا هل ذلك نافع لهم في العاقبة أو ضار. ١٠/٥٩٢

ولهذا قال: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ﴾ ثم قال: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ﴾ [القصص: ٥٠]، واتباع الهوى درجات: فمنهم المشركون والذين يعبدون من دون اللّه ما يستحسنون بلا علم، ولا برهان، كما قال: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾ [الجاثية: ٢٣] ، أي يتخذ إلهه الذي يعبده وهو ما يهواه من آلهة، ولم يقل: إن هواه نفس إلهه فليس كل من يهوي شيئًا يعبده، فإن الهوى أقسام بل المراد أنه جعل المعبود الذي يعبده هو ما يهواه ، فكانت عبادته تابعة لهوى نفسه في العبادة ، فإنه لم يعبد ما يحب أن يعبد، ولا عبد العبادة التي أمر بها.

وهذه حال أهل البدع، فإنهم عبدوا غير اللّه، وابتدعوا عبادات زعموا أنهم يعبدون اللّه بها، فهم إنما اتبعوا أهواءهم، فإن أحدهم يتبع محبة نفسه وذوقها ووجدها وهواها من غير علم، ولا هدى ، ولا كتاب منير.

فلو اتبع العلم والكتاب المنير، لم يعبد إلا اللّه بما شاء ، لا بالحوادث والبدع.

/ والمقصود أن الآلهة كثيرة، والعبادات لها متنوعة ، وبالجملة فكل ما يريده الإنسان ويحبه لابد أن يتصوره في نفسه، فتلك الصورة العلمية محركة له إلى محبوبه ولوازم الحب، فمن عبده عبد غير اللّه ، وتمثلت له الشياطين في صورة من يعبده ، وهذا ١٠/٥٩٣

كثير ما زال ولم يزل؛ ولهذا كان كل من عبد شيئًا غير اللّه، فإنما يعبد الشيطان؛ ولهذا يقارن الشيطان الشمس عند طلوعها وغروبها، واستوائها ليكون سجود من يعبدها له.

وقد كانت الشياطين، تتمثل في صورة من يعبد ، كما كانت تكلمهم من الأصنام التي يعبدونها، وكذلك في وقتنا خلق كثير من المنتسبين إلى الإسلام ، والنصارى والمشركين ممن أشرك ببعض من يعظمه من الأحياء والأموات من المشايخ وغيرهم، فيدعوه ويستغيث به في حياته وبعد مماته، فيراه قد أتاه وكلمه وقضى حاجته، وإنماهو شيطان تمثل على صورته،ليغوى هذا المشرك.

والمبتلون بالعشق، لا يزال الشيطان يمثل لأحدهم صورة المعشوق، أو يتصور بصورته، فلا يزال يرى صورته، مع مغيبه عنه بعد موته، فإنما جلاه الشيطان على قلبه، ولهذا إذا ذكر العبد اللّه الذكر الذي يخنس منه الوسواس الخناس خنس هذا المثال الشيطاني، وصورة المحبوب تستولى على المحب أحياناً حتى لا يرى غيرها، ولا يسمع غير
٥٩٤/ ١٠ كلامها، فتبقى / نفسه مشتغلة بها.

والذين يسلكون في محبة اللّه مسلكا ناقصاً، يحصل لأحدهم نوع من ذلك يسمى الاصطلام والفناء، يغيب بمحبوبه عن محبته ، وبمعروفه عن معرفته، وبمذكوره عن ذكره، حتى لا يشعر بشيء من أسماء اللّه وصفاته وكلامه وأمره ونهيه.

ومنهم من قد ينتقل من هذا إلى الاتحاد. فيقول : أنا هو، وهو أنا، وأنا اللّه، ويظن كثير من المسالكين، أن هذا هو غاية السالكين، وأن هذا هو التوحيد، الذي هو نهاية كل سالك، وهم غالطون في هذا، بل هذا من جنس قول النصارى ، ولكن ضلوا لأنهم لم يسلكوا الطريق الشرعية في الباطن في خبر اللّه وأمره.

وقد بسط الكلام على هذا في غير هذا الموضع.

والمقصود أن المتبعين لشهواتهم من الصور والطعام والشراب واللباس، يستولى على قلب أحدهم مايشتهيه حتى يقهره ويملكه، ويبقى أسيراً ما يهواه، يصرفه كيف تصرف ذلك المطلوب؛ ولهذا قال بعض السلف: ما أنا على الشاب الناسك بأخوف مني عليه من سبع ضار يثب عليه من صبي حدث يجلس إليه.

٥٩٥/ ١٠ / وذلك أن النفس الصافية التي فيها رقة الرياضة، ولم تنجذب إلى محبة اللّه وعبادته انجذاباً تاماً ،ولا قام بها من خشية اللّه التامة ما يصرفها عن هواها متى صارت تحت صورة من الصور استولت تلك الصورة عليها. كما يستولى السبع على ما يفترسه، فالسبع يأخذ

فريسته بالقهر، ولا تقدر الفريسة على الامتناع منه. كذلك ما يمثله الإنسان في قلبه من الصور المحبوبة، تبتلع قلبه وتقهره، فلا يقدر قلبه على الامتناع منه، فيبقى قلبه مستغرقًا في تلك الصورة أعظم من استغراق الفريسة في جوف الأسد؛ لأن المحبوب المراد هو غاية النفس، له عليها سلطان قاهر.

والقلب يغرق فيما يستولى عليه ، إما من محبوب وإما من مخوف، كما يوجد من محبة المال والجاه والصور ، والخائف من غيره يبقى قلبه وعقله مستغرقاً فيه ، كما يغرق الغريق في الماء ، فلابد أن يستولى عليها مايحيط بها من الأجسام ، والقلوب يستولى عليها ما يتمثل لها من المخاوف ، والمحبوبات والمكروهات ، فالمحبوب يطلبه، والمكروه يدفعه، والرجاء يتعلق بالمحبوب والخوف يتعلق بالمكروه، ولا يأتي بالحسنات إلا الله، ولا يذهب السيئات إلا الله ﴿ **وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ** ﴾ [يونس: ١٠٧] ﴿**وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ**﴾ [النحل: ٥٣].

/ وإذا دعا العبد ربه بإعطاء المطلوب، ودفع المرهوب ،جعل له من الإيمان بالله ، ومحبته، ومعرفته ،وتوحيده ،ورجائه ، وحياة قلبه ، واستنارته بنور الإيمان ما قد يكون أنفع له من ذلك المطلوب إن كان عرضاً من الدنيا، وأما إذا طلب منه أن يعينه على ذكره وشكره وحسن عبادته ومايتبع ذلك ،فهنا المطلوب قد يكون أنفع من الطلب . وهو الدعاء والمطلوب الذكر والشكر ، وقيام العبادة على أحسن الوجوه وغير ذلك . وهذا لبسطه موضع آخر. ١٠/٥٩٦

والمقصود أن القلب قد يغمره ،فيستولى عليه ما يريده العبد، ويحبه ،ومايخافه ويحذره ،كائنا من كان؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ **بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّن دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ**﴾[المؤمنون: ٦٣] ،فهي فيما يغمرها عما أنذرت به، فيغمرها ذلك عن ذكر الله والدار الآخرة وما فيها من النعيم، والعذاب الأليم . قال الله تعالى: ﴿**فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ**﴾[المؤمنون: ٥٤] ،أي فيما يغمر قلوبهم من حب المال والبنين المانع لهم من المسارعة في الخيرات ،والأعمال الصالحة. وقال تعالى: ﴿**قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ . الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ**﴾ الآيات [الذاريات: ١٠، ١١] ، أي ساهون عن أمر الآخرة ، فهم في غمرة عنها، أي فيما يغمر قلوبهم من حب الدنيا ومتاعها ، ساهون عن أمر الآخرة ، وما خلقوا له.

وهذا يشبه قوله : ﴿ **وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ / هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا** ﴾ ١٠/٥٩٧

[الكهف:٢٨] ،فالغمرة تكون من اتباع الهوى، والسهو من جنس الغفلة ؛ ولهذا قال من قال: السهو: الغفلة عن الشيء ، وذهاب القلب عنه ،وهذا جماع الشر الغفلة ، والشهوة.

فالغفلة عن الله والدار الآخرة تسد باب الخير، الذي هو الذكر واليقظة.

والشهوة تفتح باب الشر والسهو والخوف، فيبقى القلب مغموراً فيما يهواه ويخشاه، غافلاً عن الله، رائداً غير الله ، ساهياً عن ذكره ، قد اشتغل بغير الله ، قد انفرط أمره، قد ران حب الدنيا على قلبه ، كما روى في صحيح البخاري ، وغيره عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: « تعس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم ، تعس عبد القطيفة ، تعس عبد الخميصة ، تعس وانتكس ، وإذا شيك فلا انتقش ، إن أعطى رضى ، وإن منع سخط»(١).

جعله عبد ما يرضيه وجوده ويسخطه فقده، حتى يكون عبد الدرهم ،وعبد ما وصف في هذا الحديث، والقطيفة: هي التي يجلس عليها ،فهو خادمها ،كما قال بعض السلف: البس من الثياب ما يخدمك، ولا تلبس منها ما تكن أنت تخدمه، وهي كالبساط الذي تجلس عليه، والخميصة: هي التي يرتدي بها ، وهذا من أقل المال. وإنما / نبه به النبي ﷺ ١٠/٥٩٨
على ما هو أعلي منه ، فهو عبد لذلك، فيه أرباب متفرقون، وشركاء متشاكسون.

ولهذا قال:« إن أعطى رضي ، وإن منع سخط» . فما كان يرضى الإنسان حصوله ويسخطه فقده ،فهو عبده، إذ العبد يرضى باتصاله بهما ، ويسخط لفقدهما. والمعبود الحق الذي لا إله إلا هو إذا عبده المؤمن وأحبه حصل للمؤمن بذلك في قلبه إيمان، وتوحيد ومحبة، وذكر ، وعبادة ، فيرضى بذلك ، وإذا منع من ذلك غضب.

وكذلك من أحب شيئًا ،فلا بد أن يتصوره في قلبه، ويريد اتصاله به بحسب الإمكان.

قال الجنيد : لا يكون العبد عبداً حتى يكون مما سوى الله تعالى حراً. وهذا مطابق لهذا الحديث، فإنه لا يكون عبداً لله خالصاً مخلصاً دينه لله كله ، حتى لا يكون عبداً لما سواه ، ولا فيه شعبة، ولا أدنى جزء من عبودية ما سوى الله ، فإذا كان يرضيه ، ويسخطه غير الله فهو عبد لذلك الغير، ففيه من الشرك بقدر محبته ، وعبادته لذلك الغير زيادة .

قال الفضيل بن عياض : والله ما صدق الله في عبوديته ،من / لأحد من المخلوقين ١٠/٥٩٩

(١) البخاري في الجهاد (٢٨٨٧).

عليه ربانية ، وقال زيد بن عمرو بن نفيل:

أرباً واحداً ، أم ألف رب أدين إذا انقسمت الأمور؟!

روى الإمام أحمد والترمذي ،والطبراني ،من حديث أسماء بنت عميس ،قالت : قال رسول الله ﷺ : «بئس العبد عبد تخيل ،واختال، ونسى الكبير المتعال، بئس العبد عبد تجبر واعتدى ونسى الجبار الأعلى، بئس العبد عبد سها ولها،ونسى المقابر والبلى، بئس العبد عبد بغى واعتدى ،ونسى المبدأ والمنتهى ، بئس العبد عبد يختل الدنيا بالدين، بئس العبد عبد يختل الدين بالشبهات، بئس العبد عبد رغب يذله ويزيله عن الحق، بئس العبد عبد طمع يقوده، بئس العبد عبد هوى يضله» قال الترمذي: غريب[1]. وفي الحديث الصحيح المتقدم ما يقويه . والله أعلم.

وكذلك أحاديث وآثار كثيرة رويت في معنى ذلك. كما قال تعالى: ﴿ **وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ** ﴾ [البقرة: ١٦٥].

وطالب الرئاسة ـ ولو بالباطل ـ ترضيه الكلمة التي فيها تعظيمه وإن كانت باطلاً، وتغضبه الكلمة التي فيها ذمه وإن كانت حقاً./ والمؤمن ترضيه كلمة الحق له وعليه، ١٠/٦٠٠
وتغضبه كلمة الباطل له وعليه؛ لأن الله تعالى يحب الحق ،والصدق ،والعدل ، ويبغض الكذب ،والظلم.

فإذا قيل: الحق والصدق والعدل الذي يحبه الله أحبه، وإن كان فيه مخالفة هواه؛ لأن هواه قد صار تبعاً لماجاء به الرسول. وإذا قيل: الظلم والكذب ،فالله يبغضه، والمؤمن يبغضه، ولو وافق هواه.

وكذلك طالب المال ـ ولو بالباطل ـ كما قال تعالى: ﴿**وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ**﴾ [التوبة: ٥٨] وهؤلاء هم الذين قال فيهم: « تعس عبد الدينار» الحديث[2]. فكيف إذا استولى على القلب ما هو أعظم استعباداً من الدرهم والدينار، من الشهوات والأهواء ،والمحبوبات التي تجذب القلب عن كمال محبته لله وعبادته؟ ! لما فيها من المزاحمة والشرك بالمخلوقات ، كيف تدفع القلب ، وتزيغه عن كمال محبته لربه وعبادته وخشيته ؛ لأن كل محبوب يجذب قلب محبه إليه، ويزيغه

(١) الترمذي في صفة القيامة (٢٤٤٨) وقال: « غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه ، وليس إسناده بالقوى » ، والحاكم في المستدرك ٤/٣١٦ وقال : « حديث ليس في إسناده أحد منسوب إلى نوع من الجرح . . .إلخ » وقال الذهبي: « إسناده مظلم». ولم نجده في أحمد.

(٢) سبق تخريجه ص ٣٣٦.

عن محبة غير محبوبه، وكذلك المكروه يدفعه ،ويزيله، ويشغله عن عبادة الله تعالى .

١٠/٦٠١ ولهذا روى الإمام أحمد في مسنده وغيره، أن النبي ﷺ / قال لأصحابه: «الفقر تخافون؟! لا أخاف عليكم الفقر، إنما أخاف عليكم الدنيا، حتى إن قلب أحدكم إذا زاغ لا يزيغه إلا هي» (١).

وكذلك الذين يحبون العبد كأصدقائه، والذين يبغضونه كأعدائه ،فالذين يحبونه يجذبونه إليهم. فإذا لم تكن المحبة منهم له لله ،كان ذلك مما يقطعه عن الله، والذين يبغضونه يؤذونه ويعادونه فيشغلونه بأذاهم عن الله ، ولو أحسن إليه أصدقاؤه الذين يحبونه ،لغير الله أوجب إحسانهم إليه محبته لهم، وإنجذاب قلبه إليهم. ولو كان على غير الاستقامة ، وأوجب مكافأته لهم، فيقطعونه عن الله وعبادته.

فلا تزول الفتنة عن القلب ،إلا إذا كان دين العبد كله لله عز وجل ، فيكون حبه لله ولما يحبه الله، ويبغضه لله ،ولما يبغضه الله، وكذلك موالاته ومعاداته، وإلا فمحبة المخلوق تجذبه ، وحب الخلق له سبب يجذبهم به إليه، ثم قد يكون هذا أقوى، وقد يكون هذا أقوى، فإذا كان هو غالباً لهواه لم يجذبه مغلوب مع هواه، ولا محبوباته إليها؛ لكونه غلباً لهواه ناهياً لنفسه عن الهوى، لما في قلبه من خشية الله ،ومحبته التى تمنعه عن انجذابه إلى المحبوبات.

وأما حب الناس له ،فإنه يوجب أن يجذبوه هم بقوتهم إليهم، فإن لم يكن فيه قوة ١٠/٦٠٢ يدفعهم بها عن نفسه من محبة الله ،وخشيته / وإلا جذبوه وأخذوه إليهم ، كحب امرأة العزيز ليوسف، فإن قوة يوسف ومحبته لله وإخلاصه وخشيته ،كانت أقوى من جمال امرأة العزيز وحسنها وحبه لها، هذا إذا أحب أحدهم صورته، مع أن هنا الداعي قوي منه ومنهم،فهنا المعصوم من عصمه الله ،وإلا فالغالب على الناس في المحبة من الطرفين ،أنه يقع بعض الشر بينهم.

ولهذا قال رسول الله ﷺ :«لا يخلون رجل بامرأة إلا كان ثالثهما الشيطان» (٢).

وقد يحبونه لعلمه أو دينه أو إحسانه أو غير ذلك، فالفتنة في هذا أعظم ، إلا إذا كانت فيه قوة إيمانية ، وخشية وتوحيد تام ، فإن فتنة العلم والجاه والصور فتنة لكل

---

(١) أحمد ٦/ ٢٤ ، وعزاه الهيثمى فى المجمع ١٠/ ٢٤٨ إلى الطبرانى والبزار وقال: « رجاله وثقوا إلا أن بقية مدلس وإن كان ثقة ».

(٢) أحمد ١/ ١٨ ، ٣/ ٣٣٩، ٤٤٦ والترمذي في الرضاع تحت رقم (١١٧١).

مفتون. وهم مع ذلك يطلبون منه مقاصدهم، إن لم يفعلها وإلا نقص الحب، أو حصل نوع بغض، وربما زاد أو أدى إلى الانسلاخ من حبه، فصار مبغوضاً بعد أن كان محبوبا، فأصدقاء الإنسان يحبون استخدامه واستعماله في أغراضهم، حتى يكون كالعبد لهم، وأعداؤه يسعون في أذاه وإضراره، وأولئك يطلبون منه انتفاعهم، وإن كان مضراً له مفسداً لدينه لا يفكرون في ذلك . وقليل منهم الشكور.

فالطائفتان في الحقيقة لايقصدون نفعه ولا دفع ضرره، وإنما / يقصدون أغراضهم ١٠/٦٠٣
به، فإن لم يكن الإنسان عابداً الله ، متوكلاً عليه موالياً له وموالياً فيه ومعادياً، وإلا أكلته الطائفتان ، وأدى ذلك إلى هلاكه في الدنيا والآخرة.

وهذا هو المعروف من أحوال بني آدم، وما يقع بينهم من المحاربات والمخاصمات والاختلاف والفتن . قوم يوالون زيداً ،ويعادون عمراً. وآخرون بالعكس؛ لأجل أغراضهم، فإذا حصلوا على أغراضهم ممن يوالونه وما هم طالبونه من زيد انقلبوا إلى عمرو ، وكذلك أصحاب عمرو ،كما هو الواقع بين أصناف الناس.

وكذلك الرأس، من الجانبين، يميل إلى هؤلاء الذين يوالونه ،وهم إذا لم تكن الموالاة لله أضر عليه من أولئك ، فإن أولئك إنما يقصدون إفساد دنياه إما بقتله، أو بأخذ ماله، وإما بإزالة منصبه، وهذا كله ضرر دنيوي ،لا يعتد به إذا سلم العبد، وهو عكس حال أهل الدنيا ومحبيها الذين لايعتدون بفساد دينهم مع سلامة دنياهم. فهم لا يبالون بذلك. وأما «دين العبد» الذي بينه وبين الله فهم لا يقدرون عليه.

وأما أولياءه الذين يوالونه للأغراض، فإنما يقصدون منه فساد دينه بمعاونته على أغراضهم وغير ذلك، فإن لم يفعل انقلبوا أعداء، فدخل بذلك عليه الأذى من جهتين:

/من جهة مفارقتهم ،ومن جهة عداوتهم. ١٠/٦٠٤

وعداوتهم أشد عليه من عداوة أعدائه؛ لأنهم قد شاهدوا منه. وعرفوا مالم يعرفه أعداؤه. فاستجلبوا بذلك عداوة غيرهم ،فتتضاعف العداوة.

وإن لم يحب مفارقتهم ،احتاج إلى مداهنتهم ،ومساعدتهم على ما يريدونه، وإن كان فيه فساد دينه. فإن ساعدهم على نيل مرتبة دنيوية ناله مما يعملون فيها نصيباً وافراً وحظاً تاماً من ظلمهم وجورهم ،وطلبوا منه أيضاً أن يعاونهم على أغراضهم، ولو فاتت أغراضه الدنيوية. فكيف بالدينية إن وجدت فيه أو عنده !! فإن الإنسان ظالم جاهل ، لا يطلب إلا هواه.

فإن لم يكن هذا في الباطن يحسن إليهم . ويصبر على أذاهم. ويقضى حوائجهم للّه، وتكون استعانته عليهم باللّه تامة، وتوكله على اللّه تام. وإلا أفسدوا دينه ودنياه، كما هو الواقع المشاهد من الناس ،ممن يطلب الرئاسة الدنيوية، فإنه يطلب منه من الظلم والمعاصي ما ينال به تلك الرئاسة، ويحسن له هذا الرأي ، ويعاديه إن لم يقم معه ، كما قد / جرى ذلك مع غير واحد. ١٠/٦٠٥

وذلك يجري فيمن يحب شخصاً لصورته، فإنه يخدمه ،ويعظمه ،ويعطيه ما يقدر عليه، ويطلب منه من المحرم ما يفسد دينه.

وفيمن يحب صاحب بدعة؛ لكونه له داعية إلى تلك البدعة، يحوجه إلى أن ينصر الباطل الذي يعلم أنه باطل، وإلا عاداه ؛ ولهذا صار علماء الكفار ،وأهل البدع مع علمهم بأنهم على الباطل ينصرون ذلك الباطل؛ لأجل الأتباع والمحبين ، ويعادون أهل الحق ويهجنون طريقهم.

فمن أحب غير اللّه ،ووالى غيره ،كره محب اللّه ووليه، ومن أحب أحداً لغير اللّه كان ضرر أصدقائه عليه أعظم من ضرر أعدائه، فإن أعداءه غايتهم أن يحولوا بينه وبين هذا المحبوب الدنيوي ، والحيلولة بينه وبينه رحمة في حقه، وأصدقاؤه يساعدونه على نفي تلك الرحمة ،وذهابها عنه، فأي صداقة هذه؟! ويحبون بقاء ذلك المحبوب؛ ليستعملوه في أغراضهم ، وفيما يحبونه ، وكلاهما ضرر عليه.

قال تعالى: ﴿ **إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ** ﴾ [البقرة:١٦٦] ، قال الفضيل بن عياض عن ليث / عن مجاهد : هي المودات التي كانت لغير اللّه، والوصلات التي كانت بينهم في الدنيا ﴿**وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ**﴾ [البقرة:١٦٧]. فالأعمال التي أراهم اللّه حسرات عليهم: هي الأعمال التي يفعلها بعضهم،مع بعض في الدنيا كانت ،لغير اللّه، ومنها الموالاة ، والصحبة ،والمحبة ،لغير اللّه. فالخير كله في أن يعبد اللّه وحده لا يشرك به شيئًا ،ولا حول ولا قوة إلا باللّه. ١٠/٦٠٦

فَصْل

ومما يحقق هذه الأمور أن المحب يجذب، والمحبوب يجذب. فمن أحب شيئًا جذبه إليه بحسب قوته ، ومن أحب صورة جذبته تلك الصورة إلى المحبوب الموجود في الخارج بحسب قوته . فإن المحب علته فاعلية ، والمحبوب علته غائية ، وكل منهما له تأثير

في وجود المعلول، والمحب إنما يجذب المحبوب بما في قلب المحب من صورته التي يتمثلها، فتلك الصورة تجذبه بمعنى انجذابه إليها، لا أنها هي في نفسها قصد وفعل، فإن في المحبوب من المعنى المناسب ما يقتضى انجذاب المحب إليه ،كما ينجذب الإنسان إلى الطعام ليأكله، وإلى امرأة ليباشرها، وإلى / صديقه ليعاشره ، وكما تنجذب قلوب المحبين للّه ورسوله ١٠/٦٠٧ إلى اللّه ورسوله، والصالحين من عباده لما اتصف به سبحانه من الصفات التي يستحق ؛ لأجلها أن يحب ويعبد.

بل لايجوز أن يحب شيء من الموجودات ،لذاته إلا هو سبحانه وبحمده، فكل محبوب في العالم إنما يجوز أن يحب لغيره ، لا لذاته، والرب تعالى هوالذي يجب أن يحب لنفسه، وهذا من معاني إلهيته و ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء:٢٢]، فإن محبة الشيء لذاته شرك، فلا يحب لذاته إلا اللّه، فإن ذلك من خصائص إلهيته، فلا يستحق ذلك إلا اللّه وحده، وكل محبوب سواه إن لم يحب لأجله ،أو لما يحب لأجله فمحبته فاسدة.

واللّه ـ تعالى ـ خلق في النفوس حب الغذاء ، وحب النساء، لما في ذلك من حفظ الأبدان وبقاء الإنسان ، فإنه لولا حب الغذاء لما أكل الناس ففسدت أبدانهم ، ولولا حب النساء لما تزوجوا فانقطع النسل، والمقصود بوجود ذلك: بقاء كل منهم ؛ليعبدوا اللّه وحده، ويكون هو المحبوب المعبود لذاته الذي لا يستحق ذلك غيره.

وإنما تحب الأنبياء والصالحون تبعا لمحبته، فإن من تمام حبه حب ما يحبه، وهو يحب الأنبياء والصالحين، ويحب الأعمال الصالحة، فحبها / للّه هو من تمام حبه، وأما الحب معه ١٠/٦٠٨ فهو حب المشركين الذين يحبون أندادهم كحب اللّه، فالمخلوق إذا أحب للّه كان حبه جاذباً إلى حب اللّه، وإذا تحاب الرجلان في اللّه اجتمعا على ذلك ،وتفرقا عليه، كان كل منهما جاذبا للآخر إلى حب اللّه، كما قال تعالى: «حقت محبتي للمتحابين في ، وحقت محبتي للمتجالسين في ، وحقت محبتي للمتباذلين في ، وإن للّه عباداً ليسوا بأنبياء ولا شهداء يغبطهم الأنبياء والشهداء بقربهم من اللّه، وهم قوم تحابوا بروح اللّه علي غير أموال يتباذلونها، ولا أرحام يتواصلون بها، إن لوجوههم لنوراً، وإنهم لعلى كراسي من نور، لا يخافون إذا خاف الناس، ولا يحزنون إذا حزن الناس» (١).

فإنك إذا أحببت الشخص للّه كان اللّه هو المحبوب لذاته ، فكلما تصورته في قلبك تصورت محبوب الحق فأحببته ، فازداد حبك للّه ، كما إذا ذكرت النبي ﷺ ، والأنبياء قبله ، والمرسلين وأصحابهم الصالحين ، وتصورتهم في قلبك ، فإن ذلك يجذب قلبك

(١) أحمد ٤/ ٣٨٦، ٥/ ٣٢٨ والترمذي في الزهد (٢٣٩٠) وقال:« حسن صحيح».

إلى محبة اللّه المنعم عليهم، وبهم إذا كنت تحبهم للّه، فالمحبوب للّه يجذب إلى محبة اللّه، والمحب للّه ،إذا أحب شخصاً للّه ،فإن اللّه هو محبوبه، فهو يحب أن يجذبه إلى اللّه تعالى، وكل من المحب للّه والمحبوب للّه يجذب إلى اللّه.

١٠/٦٠٩ وهكذا إذا كان الحب لغير اللّه، كما إذا أحب كل من الشخصين / الآخر بصورة : كالمرأة مع الرجل، فإن المحب يطلب المحبوب ،والمحبوب يطلب المحب، بانجذاب المحبوب، فإذا كانا متحابين صار كل منهما جاذباً مجذوباً من الوجهين، فيجب الاتصال، ولو كان الحب من أحد الجانبين ؛لكان المحب يجذب المحبوب ،والمحبوب يجذبه، لكن المحبوب لا يقصد جذبه ، والمحب يقصد جذبه وينجذب.

وهذا سبب التأثير في المحبوب، إما تمثل يحصل في قلبه، فينجذب ،وإما أن ينجذب بلا محبة: كما يأكل الرجل الطعام، ويلبس الثوب ، ويسكن الدار، ونحو ذلك من المحبوبات التي لا إرادة لها.

وأما الحيوان، فيحب بعضه بعضاً بكونه سبباً للإحسان إليه وقد جبلت النفوس على حب من أحسن إليها، لكن هذا في الحقيقة إنما هو محبة الإحسان، لا نفس المحسن، ولو قطع ذلك لاضمحل ذلك الحب وربما أعقب بغضاً، فإنه ليس للّه عز وجل .

فإن من أحب إنساناً ؛لكونه يعطيه، فما أحب إلا العطاء، ومن قال: إنه يحب من يعطيه للّه فهذا كذب ،ومحال ،وزور من القول ، وكذلك من أحب إنساناً لكونه ينصره إنما أحب النصر لا الناصر. وهذا كله من اتباع ما تهوى الأنفس ، فإنه لم يحب في الحقيقة إلا ما يصل إليه من جلب منفعة ، أو دفع مضرة ، فهو إنما أحب تلك المنفعة ودفع المضرة
١٠/٦١٠ وإنما / أحب ذلك لكونه وسيلة إلى محبوبه،وليس هذا حباً للّه ولا لذات المحبوب.

وعلى هذا تجرى عامة محبة الخلق بعضهم مع بعض، وهذا لا يثابون عليه في الآخرة ولا ينفعهم، بل ربما أدى ذلك إلى النفاق والمداهنة، فكانوا في الآخرة من الأخلاء الذين بعضهم لبعض عدو إلا المتقين. وإنما ينفعهم في الآخرة الحب في اللّه وللّه وحده، وأما من يرجو النفع والنصر من شخص ثم يزعم أنه يحبه للّه ،فهذا من دسائس النفوس ونفاق الأقوال.

وإنما ينفع العبد الحب للّه لما يحبه اللّه من خلقه ،كالأنبياء والصالحين ؛لكون حبهم يقرب إلى اللّه ومحبته، وهؤلاء هم الذين يستحقون محبة اللّه لهم.

ونبينا كان يعطي المؤلفة قلوبهم ، ويدع آخرين هم أحب إليه من الذي يعطي ؛

يكلهم إلى ما في قلوبهم من الإيمان، وإنما كان يعطي المؤلفة قلوبهم ،لما في قلوبهم من الهلع والجزع؛ ليكون ما يعطيهم سبباً لجلب قلوبهم إلى أن يحبوا الإسلام فيحبوا الله، فكان مقصوده بذلك دعوة القلوب إلى حب الله عز وجل ، وصرفها عن ضد ذلك ؛ ولهذا كان يعطي أقواماً خشية أن يكبهم الله على وجوههم في النار فمنعهم بذلك العطاء عما / يكرهه منهم فكان يعطي لله ويمنع لله. وقد قال:«من أحب لله ،وأبغض لله، ١٠/٦١١ وأعطى لله ،ومنع لله، فقد استكمل الإيمان» (١) ،وفي صحيح البخاري عنه ﷺ أنه قال:«إني والله إنما أنا قاسم لا أعطي أحداً ولا أمنع أحداً ،ولكن أضع حيث أمرت»(٢).

وصورة المحبوب المتمثلة في النفس يتحرك لها المحب، ويريد لها ،ويحب ويبغض ويبتهج وينشرح عند ذكرها ،من أي جنس كانت، فتبقى هي كالآمر الناهي له؛ ولهذا يجد في نفسه كأنها تخاطبه بأمر ونهي وغير ذلك ،كما يرى كثير من الناس من يحبه، ويعظمه في منامه ،وهو يأمره ،وينهاه ،ويخبره بأمور.

والمشركون تتمثل لهم الشياطين في صور من يعبدونه ، تأمرهم وتنهاهم.

والقائلون بالشاهد والمنتسبون إلى السلوك يقول أحدهم: إنه يخاطب في باطنه على لسان الشاهد ، فمنهم من يصلي بالليل وذاك بإزائه ليشاهده في الضوء ، ومنهم من يشاهده في حال السماع في غيره ، ويظنون أنهم يخاطبون ويجدون المريد في قلوبهم بذلك، وذلك لأنهم يتمثلونه في أنفسهم ، وربما كان الشيطان يتمثل في صورته ، فيجدون في نفوسهم خطابا من تلك الصورة ، فيقولون : خوطبنا من جهته . وهذا وإن كان موجوداً في / المخاطب فمن المخاطب له ؟ فالفرقان هنا . فإنما ذلك المخاطب من وسواس ١٠/٦١٢ الشيطان والنفس.

وقد يخاطبون بأشياء حسنة رشوة منه لهم ، ولا يخاطبون بما يعرفون أنه باطل؛لئلا ينفرون منه ، بل الشيطان يخاطب أحدهم بما يري أنه حق ، والراهب إذا راض نفسه فمرة يرى في نفسه صورة التثليث ، وربما خوطب منها؛لأنه كان قد يتمثلها قبل ذلك،فلما انصقلت نفسه بالرياضة ظهرت له ، والمؤمن الذي يحب الله ورسوله يرى الرسول في منامه بحسب إيمانه، وكذلك يري الله تعالى في منامه بحسب إيمانه ، كما قد بسط في غير هذا الموضع.

ولهذا كثير من أهل الزهد والعبادة يكون من أعوان الكفار ،ويزعم أنه مأمور بذلك، ويخاطب به ويظن أن الله هو الذي أمره بذلك ، والله منزه عن ذلك، وإنما الآمر له بذلك

---

(١) سبق تخريجه ص ٥٢.

(٢) سبق تخريجه ص ٢٦٧.

النفس والشيطان ومافي نفسه من الشرك، إذ لو كان مخلصاً للّه الدين، لما عرض له شيء من ذلك، فإن هذا لا يكون إلا لمن فيه شرك في عبادته، أو عنده بدعة، ولا يقع هذا لمخلص متمسك بالسنة البتة.

وإذا كانت الرؤيا ،على ثلاثة أقسام:

رؤيا من اللّه.

١٠/٦١٣ / ورؤيا من حديث النفس.

ورؤيا من الشيطان.

فكذلك ما يلقي في نفس الإنسان في حال يقظته ثلاثة أقسام.

ولهذا كانت الأحوال ثلاثة: رحماني، ونفساني، وشيطاني.

وما يحصل من نوع المكاشفة والتصرف ثلاثة أصناف: ملكي ،ونفسي ، وشيطاني، فإن الملك له قوة، والنفس لها قوة، والشيطان له قوة، وقلب المؤمن له قوة، فما كان من الملك ومن قلب المؤمن، فهو حق، وما كان من الشيطان ووسوسة النفس ،فهو باطل.

وقد اشتبه هذا بهذا على طوائف كثيرة، فلم يفرقوا بين أولياء اللّه وأعداء اللّه، بل صاروا يظنون في من هو من جنس المشركين والكفار ـ أهل الكتاب من وجوه كثيرة ـ أنه من أولياء اللّه المتقين. والكلام في هذا مبسوط في موضع آخر.

ولهذا في هؤلاء من يرى جواز قتال الأنبياء، ومنهم من يرى أنه أفضل من الأنبياء، إلى أنواع أخر. وذلك ؛لأنه حصل لهم من الأنواع الشيطانية والنفسانية ما ظنوا أنها من
١٠/٦١٤ كرامات الأولياء ، فظنوا / أنهم منهم، فكان الأمر بالعكس. وأصل هذا أنهم تعبدوا بما تحبه النفس، وأما العبادة بما يحبه اللّه ويرضاه ،فلا يحبونه ولا يريدونه وحده، ويرون أنهم إذا عبدوا اللّه بما أمر به ورسله حط لهم عن منصب الولاية ، فيحدثون محبة قوية وتألهاً وعبادة وشوقاً وزهداً، ولكن فيه شرك وبدعة.

ومحبة التوحيد: إنما تكون للّه وحده على متابعة رسوله، كما قال تعالى: ﴿**قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ**﴾ [آل عمران: ٣١] ؛ فلهذا يكون أهل الاتباع فيهم جهاد ونية في محبتهم، يحبون للّه ، ويبغضون له. وهم على ملة إبراهيم. والذين معه ﴿**إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ**﴾ [الممتحنة: ٤] ، وأولئك محبتهم

فيها شرك ،وليسوا متابعين للرسول، ولا مجاهدين في سبيل اللّه، فليست هي المحبة الإخلاصية، فإنها مقرونة بالتوحيد ؛ ولهذا سمي أبو طالب المكي كتابه: قوت القلوب في معاملة المحبوب ،ووصف طريق المريد إلى مقام التوحيد،واللّه ـ سبحانه ـ أعلم.

١٠/٦١٥ / قَالَ شَيْخُ الإِسْـلام ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ أَيْضاً :

فَصْـل

قد كتبت في كراسة الحوادث فصلا في : جماع الزهد والورع.

وإن الزهد : هو عما لا ينفع ، إما لانتفاء نفعه، أو لكونه مرجوحاً ؛ لأنه مفوت لما هو أنفع منه، أو محصل لما يربو ضرره على نفعه. وأما المنافع الخالصة ،أو الراجحة فالزهد فيها حمق

وأما الورع، فإنه الإمساك عما قد يضر ، فتدخل فيه المحرمات والشبهات ؛لأنها قد تضر. فإنه من اتقى الشبهات استبرأ لعرضه ودينه ،ومن وقع في الشبهات ،وقع في الحرام، كالراعي حول الحمى يوشك أن يواقعه.

١٠/٦١٦ وأما الورع، عما لا مضرة فيه ،أو فيه مضرة مرجوحة ـ لما / تقترن به من جلب منفعة راجحة ، أو دفع مضرة أخرى راجحة ـ فجهل وظلم. وذلك يتضمن: ثلاثة أقسام لا يتورع عنها المنافع المكافئة والراجحة والخالصة كالمباح المحض أو المستحب أو الواجب فإن الورع عنها ضلالة.

وأنا أذكر هنا تفصيل ذلك فأقول:

الزهد ، خلاف الرغبة. يقال : فلان زاهد في كذا. وفلان راغب فيه. و الرغبة: هي من جنس الإرادة . فالزهد في الشيء انتفاء الإرادة له، إما مع وجود كراهته ،وإما مع عدم الإرادة والكراهة ،بحيث لايكون لا مريداً له ،ولا كارهاً له، وكل من لم يرغب في الشيء ويريده فهو زاهد فيه.

وكما أن سبيل اللّه يحمد فيه الزهد ،فيما زهد اللّه فيه من فضول الدنيا ،فتحمد فيه الرغبة والإرادة لما حمد اللّه إرادته ،والرغبة فيه؛ ولهذا كان أساس الطريق الإرادة. كما قال تعالى: ﴿**وَلا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ**﴾[الأنعام :٥٢]، وقال تعالى: ﴿**وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُوراً**﴾ [الإسراء:١٩]، ونظائره متعددة.

١٠/٦١٧ / كما رغب في الزهد ، وذم ضده في قوله : ﴿ **مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ . أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ**﴾ [هود : ١٥، ١٦] ، وقال تعالى: ﴿ **أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ** ﴾ السورة [التكاثر] ، وقال تعالى:

﴿وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلاً لَّمًّا. وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ [الفجر: ١٩، ٢٠] ، وقال: ﴿ إِنَّ الإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ . وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَلِكَ لَشَهِيدٌ . وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾[العاديات: ٦-٨]، وقال تعالى: ﴿ أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ﴾ الآية[الحديد: ٢٠] ، وهذا باب واسع.

وإنما المقصود هنا تميز الزهد الشرعي، من غيره، وهو الزهد المحمود ، وتميز الرغبة الشرعية، من غيرها، وهي الرغبة المحمودة ، فإنه كثيراً ما يشتبه الزهد بالكسل والعجز والبطالة عن الأوامر الشرعية ،وكثيراً ما تشتبه الرغبة الشرعية بالحرص ،والطمع ، والعمل الذي ضل سعى صاحبه.

وأما الورع ، فهو اجتناب الفعل واتقاؤه، والكف والإمساك عنه والحذر منه، وهو يعود إلى كراهة الأمر، والنفرة منه، والبغض له ،وهو أمر وجودي أيضاً ـ وإن كان قد اختلف في المطلوب بالنهي. هل هو عدم المنهى عنه، أو فعل ضده؟ وأكثر أهل الإثبات على الثاني ـ فلا ريب أنه لايسمى ورعاً، ومتورعاً، ومتقياً ، إلا إذا وجد منه الامتناع والإمساك الذي هو فعل ضد المنهي عنه.

/ والتحقيق : أنه مع عدم المنهي عنه يحصل له عدم مضرة الفعل المنهي عنه، وهو ١٠/٦١٨
ذمه وعقابه ونحو ذلك، ومع وجود الامتناع والاتقاء والاجتناب يكون قد وجد منه عمل صالح وطاعة وتقوى ، فيحصل له منفعة هذا العمل ، من حمده وثوابه ، وغير ذلك ، فعدم المضرة لعدم السيئات، ووجود المنفعة لوجود الحسنات.

فتلخص أن الزهد من باب عدم الرغبة، والإرادة في المزهود فيه. والورع من باب وجود النفرة ،والكراهة للمتورع عنه، وانتفاء الإرادة، إنما يصلح فيما ليس فيه منفعة خالصة أو راجحة ، وأما وجود الكراهة ،فإنما يصلح فيما فيه مضرة خالصة أو راجحة ، فأما إذا فرض مالا منفعة فيه ولا مضرة، أو منفعته ومضرته سواء من كل وجه، فهذا لا يصلح أن يراد ، ولا يصلح أن يكره ، فيصلح فيه الزهد، ولا يصلح فيه الورع، فظهر بذلك أن كل ما يصلح فيه الورع يصلح فيه الزهد، من غير عكس ، وهذا بين ،فإن ما صلح أن يكره وينفر عنه صلح أن لا يراد ولا يرغب فيه، فإن عدم الإرادة أولى من وجود الكراهة، ووجود الكراهة مستلزم عدم الإرادة من غير عكس ، وليس كل ما صلح أن لا يراد يصلح أن يكره ، بل قد يعرض من الأمور مالا تصلح إرادته ولا كراهته، ولا حبه ولا بغضه ولا الأمر به، ولا النهي عنه.

/ وبهذا يتبين أن الواجبات والمستحبات ،لا يصلح فيها زهد ولا ورع ، وأما المحرمات ١٠/٦١٩

والمكروهات ،فيصلح فيها الزهد والورع. وأما المباحات، فيصلح فيها الزهد دون الورع، وهذا القدر ظاهر تعرفه بأدنى تأمل.

وإنما الشأن فيما إذا تعارض في الفعل. هل هو مأمور به، أو منهي عنه، أو مباح؟ وفيما إذا اقترن بما جنسه مباح ما يجعله مأموراً به ،أو منهياً عنه، أو اقترن بالمأمور به، مايجعله منهياً عنه وبالعكس.

فعند اجتماع المصالح والمفاسد والمنافع والمضار وتعارضها ، يحتاج إلى الفرقان.

/ وَقَـال: ١٠/٦٢٠

فَصْـــل

قول بعض الناس : الثواب على قدر المشقة ليس بمستقيم على الإطلاق، كما قد يستدل به طوائف على أنواع من الرهبانيات، والعبادات المبتدعة ،التي لم يشرعها اللّه ورسوله من جنس تحريمات المشركين وغيرهم ما أحل اللّه من الطيبات ، ومثل التعمق والتنطع الذي ذمه النبي ﷺ ، حيث قال : « هلك المتنطعون » (١) ، وقال : « لو مد لي الشهر لواصلت وصالاً يدع المتعمقون تعمقهم» (٢) ، مثل الجوع أو العطش المفرط ،الذي يضر العقل والجسم، ويمنع أداء واجبات أو مستحبات أنفع منه، وكذلك الاحتفاء والتعري والمشي الذي يضر الإنسان بلا فائدة ، مثل حديث أبي إسرائيل الذي نذر أن يصوم ، وأن يقوم قائما ولا يجلس ولا يستظل ولا يتكلم فقال النبي ﷺ : « مروه فليجلس ، وليستظل،وليتكلم ،وليتم / صومه» رواه البخاري (٣)، وهذا باب واسع. ١٠/٦٢١

وأما الأجر على قدر الطاعة فقد تكون الطاعة للّه ورسوله في عمل ميسر ،كما يسر اللّه على أهل الإسلام :الكلمتين، وهما أفضل الأعمال ؛ ولذلك قال النبي ﷺ: «كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن ، سبحان اللّه وبحمده، سبحان اللّه العظيم» أخرجاه في الصحيحين (٤).

ولو قيل :الأجر على قدر منفعة العمل ،وفائدته ؛لكان صحيحاً اتصاف الأول باعتبار تعلقه بالأمر والثاني باعتبار صفته في نفسه. والعمل تكون منفعته وفائدته تارة من جهة الأمر فقط، وتارة من جهة صفته في نفسه، وتارة من كلا الأمرين. فبالاعتبار الأول ينقسم إلى طاعة ومعصية، وبالثاني ينقسم إلى حسنة وسيئة، والطاعة والمعصية اسم له من جهة الأمر ، والحسنة والسيئة اسم له من جهة نفسه. . . (٥) وإن كان كثير من الناس لا يثبت إلا الأول ، كما تقوله الأشعرية وطائفة من الفقهاء من أصحابنا وغيرهم.

---

(١) مسلم في العلم (٢٦٧٠ / ٧) ، وأبو داود في السنة (٤٦٠٨) ، وأحمد ١/ ٣٨٦ ، كلهم عن عبد الله بن مسعود.

(٢) البخاري في التمني (٧٢٤١) ، ومسلم في الصيام (١١٠٤/ ٥٩، ٦٠)، وأحمد ٣/ ١٢٤ ، كلهم عن أنس.

(٣) البخاري في الإيمان والنذور (٦٧٠٤)، عن ابن عباس.

(٤) البخاري في التوحيد (٧٥٦٣) ومسلم في الذكر والدعاء (٢٦٩٤/ ٣١).

(٥) خرم بالأصل مقدار ثلث سطر.

١٠/٦٢٢ ومن الناس من لايثبت إلا الثاني، كما تقوله المعتزلة وطائفة / من الفقهاء من أصحابنا وغيرهم ، والصواب إثبات الاعتبارين ،كما تدل عليه نصوص الأئمة وكلام السلف وجمهور العلماء من أصحابنا وغيرهم.

فأما كونه مشقاً ،فليس هو سبباً لفضل العمل ورجحانه، ولكن قد يكون العمل الفاضل مشقاً ،ففضله لمعنى غير مشقته، والصبر عليه مع المشقة يزيد ثوابه وأجره، فيزداد الثواب بالمشقة ، كما أن من كان بعده عن البيت في الحج والعمرة أكثر ، يكون أجره أعظم من القريب كما قال النبي ﷺ لعائشة في العمرة:« أجرك على قدر نصبك»(١) لأن الأجر على قدر العمل في بعد المسافة، وبالبعد يكثر النصب فيكثر الأجر، وكذلك الجهاد، وقوله ﷺ : «الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة، والذي يقرأه ويتتعتع فيه، وهو عليه شاق له أجران» (٢).

فكثيراً ما يكثر الثواب على قدر المشقة والتعب، لا لأن التعب والمشقة مقصود من العمل، لكن ؛لأن العمل مستلزم للمشقة والتعب، هذا في شرعنا الذي رفعت عنا فيه الآصار والأغلال، ولم يجعل علينا فيه حرج، ولا أريد بنا فيه العسر، وأما في شرع من قبلنا ،فقد تكون المشقة مطلوبة منهم. وكثير من العباد يرى جنس المشقة والألم والتعب
١٠/٦٢٣ مطلوباً مقرباً إلى الله ؛ لما فيه من نفرة النفس عن اللذات والركون / إلى الدنيا وانقطاع القلب عن علاقة الجسد، وهذا من جنس زهد الصابئة والهند وغيرهم.

ولهذا تجد هؤلاء مع من شابههم من الرهبان يعالجون الأعمال الشاقة الشديدة المتعبة من أنواع العبادات والزهادات، مع أنه لا فائدة فيها ولا ثمرة لها ،ولا منفعة إلا أن يكون شيئًا يسيراً لا يقاوم العذاب الأليم الذي يجدونه.

ونظير هذا الأصل الفاسد ،مدح بعض الجهال بأن يقول: فلان ما نكح ولا ذبح. وهذا مدح الرهبان الذين لا ينكحون ولا يذبحون، وأما الحنفاء فقد قال النبي ﷺ : «لكني أصوم وأفطر وأتزوج النساء ،وآكل اللحم، فمن رغب عن سنتي فليس مني» (٣).

وهذه الأشياء هي من الدين الفاسد ،وهو مذموم ،كما أن الطمأنينة إلى الحياة الدنيا مذموم.

والناس أقسام :

---

(١) البخاري في العمرة (١٧٨٧) ، ومسلم في الحج (١١٢١/ ١٢٦)، وأحمد ٦/ ٤٣.

(٢) البخاري في التفسير (٤٩٣٧) ومسلم في صلاة المسافرين (٧٩٨/ ٢٤٤).

(٣) البخاري في النكاح (٥٠٦٣) ومسلم في النكاح (١٤٠١/ ٥).

أصحاب دنيا محضة : وهم المعرضون عن الآخرة.

وأصحاب دين فاسد: وهم الكفار ،والمبتدعة الذين يتدينون بما لم / يشرعه الله من ٦٢٤/ ١٠
أنواع العبادات، والزهادات.

والقسم الثالث وهم : أهل الدين الصحيح، أهل الإسلام المستمسكون بالكتاب، والسنة والجماعة ، والحمد لله الذي هدانا لهذا ،وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله لقد جاءت رسل ربنا بالحق.

١٠/٦٢٥ / وَقَالَ شَيخُ الإِسْلام أحمَد بن تيمية ـ رَحِمَهُ اللَّهُ :

فَصْل

في تزكية النفس وكيف تزكو بترك المحرمات مع فعل المأمورات ، قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا﴾ [الشمس: ٩]، و﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾ [الأعلى: ١٤].

قال قتادة وابن عيينة وغيرهما : قد أفلح من زكى نفسه بطاعة اللّه ،وصالح الأعمال. وقال الفراء والزجاج : قد أفلحت نفس زكاها اللّه ،وقد خابت نفس دساها اللّه. وكذلك ذكره الوالبي ،عن ابن عباس وهو منقطع. وليس هو مراد من الآية؛ بل المراد بها الأول قطعًا لفظًا ومعنى.

١٠/٦٢٦ أما اللفظ فقوله : من زكاها اسم موصول ولابد فيه من عائد/ على ﴿مَن﴾ فإذا قيل: قد أفلح الشخص الذي زكاها؛ كان ضمير الشخص في زكاها يعود على ﴿مَن﴾،هذا وجه الكلام الذي لا ريب في صحته كما يقال: قد أفلح من اتقى الله وقد أفلح من أطاع ربه.

وأما إذا كان المعنى : قد أفلح من زكاه اللّه ،لم يبق في الجملة ضمير يعود على ﴿مَن﴾ فإن الضميرعلى هذا يعود على اللّه، وليس هو ﴿مَن﴾ وضمير المفعول يعود على النفس المتقدمة فلا يعود على ﴿مَن﴾ لا ضمير الفاعل، ولا المفعول .فتخلوا الصلة من عائد وهذا لا يجوز.

نعم، لو قيل: قد أفلح من زكى اللّه نفسه ،أو من زكاها اللّه له ،ونحو ذلك صح الكلام، وخفاء هذا على من قال به من النحاة عجب . وهو لم يقل : قد أفلحت نفس زكاها. فإنه هنا كانت تكون زكاها صفة لنفس لا صلة، بل قال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا﴾ [الشمس: ٩]، فالجملة صلة لـ ﴿ مَن﴾ لا صفة لها.

ولا قال أيضاً : قد أفلحت النفس التي زكاها ، فإنه لو قيل ذلك ، وجعل في ﴿زَكَّاهَا ﴾ ضمير يعود على اسم اللّه صح ، فإذا تكلفوا ، وقالوا : التقدير ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴾ هي النفس التي زكاها ، وقالوا: في زكى ضمير المفعول يعود على ﴿مَن﴾ وهي
١٠/٦٢٧ تصلح للمذكر والمؤنث / والواحد والعدد، فالضمير عائد على معناها المؤنث ،وتأنيثها غير حقيقي؛ ولهذا قيل: ﴿قَدْ أَفْلَحَ﴾ ولم يقل: قد أفلحت، قيل لهم: هذا مع أنه خروج من اللغة الفصيحة ، فإنما يصح إذا دل الكلام على ذلك في مثل ومن . . . [1] على أن المراد

(١) بياض بالأصل.

لنا ، وكذا قوله: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾ [يونس: ٤٢] ،ونحو ذلك.

وأما هنا فليس في لفظ ﴿مَن﴾، وما بعدها ما يدل على أن المراد به النفس المؤنثة، فلا يجوز أن يراد بالكلام ما ليس فيه دليل على إرادته، فإن مثل هذا مما يصان كلام اللّه عز وجل عنه، فلو قدر احتمال عود ضمير ﴿زَكَّاهَا﴾ إلى نفس وإلى ﴿مَن﴾،مع أن لفظ ﴿مَن﴾ لا دليل يوجب عوده عليه ؛لكان إعادته إلى المؤنث أولى من إعادته إلى ما يحتمل التذكير والتأنيث، وهو في التذكير أظهر، لعدم دلالته على التأنيث، فإن الكلام إذا احتمل معنيين وجب حمله على أظهرهما، ومن تكلف غير ذلك ،فقد خرج عن كلام العرب المعروف، والقرآن منزه عن ذلك، والعدول عما يدل عليه ظاهر الكلام إلى مالا يدل عليه بلا دليل لا يجوز البتة فكيف إذا كان نصاً من جهة المعني؟! فقد أخبر اللّه أنه يلهم التقوى والفجور . ولبسط هذا موضع آخر.

/ والمقصود هنا أمر الناس بتزكية أنفسهم ،والتحذير من تدسيتها، كقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾ [الأعلى: ١٤] ،فلو قدر أن المعنى قد أفلح من زكى اللّه نفسه لم يكن فيه أمر لهم ولا نهي، ولا ترغيب ولا ترهيب. والقرآن إذا أمر أو نهى لا يذكر مجرد القدر فلا يقول: من جعله اللّه مؤمناً ، بل يقول: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [المؤمنون: ١] ، ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴾ إذ ذكر مجرد القدر في هذا يناقض المقصود ، ولا يليق هذا بأضعف الناس عقلا فكيف بكلام اللّه؟! ألا ترى أنه في مقام الأمر، والنهي، والترغيب ،والترهيب يذكر ما يناسبه من الوعد ، والوعيد، والمدح، والذم، وإنما يذكر القدر عند بيان نعمه عليهم، إما بما ليس من أفعالهم، وإما بإنعامه بالإيمان ،والعمل الصالح، ويذكره في سياق قدرته ومشيئته، وأما في معرض الأمر فلا يذكره إلا عند النعم . كقوله: ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ ﴾ الآية [النور: ٢١] ، فهذا مناسب. وقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾وهذه الآية من جنس الثانية لا الأولى. ٦٢٨/ ١٠

والمقصود ذكر التزكية قال تعالى: ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا ﴾ الآية [النور: ٣٠]، وقال: ﴿فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ﴾[النور: ٢٨]، وقال: ﴿ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ ﴾ [فصلت: ٧]، وقال: ﴿ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴾[عبس: ٧].

وأصل الزكاة الزيادة في الخير. ومنه يقال: زكا الزرع ، وزكا / المال إذا نما. ولن ينمو الخير إلا بترك الشر، والزرع لا يزكو حتى يزال عنه الدغل ، فكذلك النفس والأعمال لا تزكوا حتي يزال عنها ما يناقضها ولا يكون الرجل متزكياً إلا مع ترك الشر، فإنه يدنس النفس ويدسيها. قال الزجاج : ﴿دَسَّاهَا﴾ جعلها ذليلة حقيرة خسيسة ،وقال الفراء : ٦٢٩/ ١٠

دساها؛ لأن البخيل يخفي نفسه ومنزله وماله، قال ابن قتيبة : أي أخفاها بالفجور والمعصية ، فالفاجر دس نفسه ، أي قمعها وخباها، وصانع المعروف شهر نفسه ورفعها، وكانت أجواد العرب تنزل الربى لتشهر أنفسها، واللئام تنزل الأطراف والوديان.

فالبر والتقوى يبسط النفس، ويشرح الصدر، بحيث يجد الإنسان في نفسه اتساعاً وبسطًا عما كان عليه قبل ذلك، فإنه لما اتسع بالبر والتقوى والإحسان بسطه الله وشرح صدره، والفجور ،والبخل يقمع النفس ويضعها ويهينها ، بحيث يجد البخيل في نفسه أنه ضيق. وقد بين النبي ﷺ ذلك في الحديث الصحيح ،فقال: «مثل البخيل والمتصدق، كمثل رجلين عليهما جبتان من حديد ،قد اضطرت أيديهما إلى تراقيهما. فجعل المتصدق كلما هم بصدقة اتسعت وانبسطت عنه، حتى تغشى أنامله، وتعفو أثره، وجعل البخيل كلما هم بصدقة، قلصت، وأخذت كل حلقة بمكانها، وأنا رأيت رسول الله ﷺ يقول بأصبعه في جيبه، فلو رأيتها يوسعها فلا تتسع» أخرجاه (١).

١٠/٦٣٠ / وإخفاء المنزل وإظهاره تبعاً لذلك ، قال تعالى: ﴿ **يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ**﴾ الآية [النحل: ٥٩] . فهكذا النفس البخيلة الفاجرة قد دسها صاحبها في بدنه بعضها في بعض؛ ولهذا وقت الموت تنزع من بدنه كما ينزع السفود من الصوف المبتل، والنفس البرة التقية النقية، التي قد زكاها صاحبها فارتفعت ، واتسعت ،ومجدت ،ونبلت فوقت الموت تخرج من البدن تسيل ،كالقطرة من في السقاء، وكالشعرة من العجين. قال ابن عباس: إن للحسنة لنوراً في القلب، وضياءً في الوجه، وقوة في البدن، وسعة في الرزق، ومحبة في قلوب الخلق. وإن للسيئة لظلمة في القلب، وسواداً في الوجه، ووهنا في البدن،وضيقاً في الرزق، وبغضة في قلوب الخلق. قال تعالى: ﴿**وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ**﴾ الآية [الأعراف: ٥٨] . وهذا مثل البخيل والمنفق. قال: ﴿**فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ**﴾ الآية [الأنعام: ١٢٥]. وقال: ﴿ **اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا**﴾ الآية [البقرة: ٢٥٧].

وقال له في سياق الرمي بالفاحشة، وذم من أحب إظهارها في المؤمنين، والمتكلم بما لا يعلم: ﴿ **وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا**﴾الآية[النور: ٢١] . فبين أن الزكاة إنما تحصل بترك الفاحشة ولهذا قال: ﴿ **قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ** ﴾ الآية [النور: ٣٠] . وذلك أن ترك السيئات هو من أعمال النفس ، فإنها تعلم أن السيئات
١٠/٦٣١ مذمومة ومكروه فعلها، ويجاهد نفسه إذا دعته إليها، إن كان مصدقاً لكتاب / ربه مؤمنا بما جاء عن نبيه ﷺ ؛ ولهذا التصديق والإيمان والكراهة وجهاد النفس أعمال تعملها النفس المزكاة ، فتزكو بذلك أيضًا ، بخلاف ما إذا عملت السيئات فإنها تتدنس وتندس ،

(١) البخارى في الجهاد (٢٩١٧) ومسلم في الزكاة (١٠٢١/ ٧٥، ٧٦).

وتنقمع ،كالزرع إذا نبت معه الدغل.

والثواب إنما يكون على عمل موجود، وكذلك العقاب. فأما العدم المحض، فلا ثواب فيه ولا عقاب، لكن فيه عدم الثواب والعقاب، واللّه سبحانه أمر بالخير، ونهى عن الشر، واتفق الناس على أن المطلوب بالأمر فعل موجود ، واختلفوا في النهي هل المطلوب أمر وجودي، أم عدمي؟ فقيل: وجودي ، وهو الترك ، وهذا قول الأكثر. وقيل: المطلوب عدم الشر، وهو ألا يفعله.

والتحقيق أن المؤمن إذا نهى عن المنكر ، فلا بد ألا يقربه ويعزم على تركه ، ويكره فعله، وهذا أمر وجودي بلا ريب ، فلايتصور أن المؤمن الذي يعلم أنه. . . [1] وجودي، لكن قد لا يكون مريداً له كما يكره أكل الميتة طبعاً، ومع ذلك، فلابد له من اعتقاد التحريم والعزم على تركه لطاعة الشارع، وهذا قدر زائد على كراهة الطبع، وهو أمر وجودي يثاب عليه، ولكن ليس كثواب من كف نفسه وجاهدها عن طلب / المحرم، ومن كانت كراهته ١٠/٦٣٢
للمحرمات كراهة إيمان. وقد غمر إيمانه حكم طبعه، فهذا أعلى الأقسام الثلاثة، وهذا صاحب النفس المطمئنة، وهو أرفع من صاحب اللوامة التي تفعل الذنب ، وتلوم صاحبها عليه، وتتلوم وتتردد ،هل تفعله أم لا؟!

وأما من لم يخطر بباله أن اللّه حرمه، ولا هو مريد له، بل لم يفعله، فهذا لايعاقب ولا يثاب، إذ لم يحصل منه أمر وجودي يثاب عليه ،أو يعاقب فمن قال: المطلوب ألا يفعل، إن أراد أن هذا المطلوب يكفي في عدم العقاب ، فقد صدق، وإن أراد أنه يثاب على هذا العدم ،فليس كذلك، والكافر إذا لم يؤمن باللّه ورسوله، فلا بد لنفسه من أعمال يشتغل بها عن الإيمان، وترك الأعمال كفر يعاقب عليها.

ولهذا لما ذكر اللّه عقوبة الكفار في النار، ذكر أموراً وجودية وتلك تدس النفس ؛ ولهذا كان التوحيد والإيمان أعظم ما تزكو به النفس، وكان الشرك أعظم ما يدسيها، وتتزكى بالأعمال الصالحة والصدقة هذا كله مما ذكره السلف . قالوا: في ﴿**قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى**﴾[الأعلى: ١٤]، تطهر من الشرك ،ومن المعصية بالتوبة، وعن أبي سعيد وعطاء وقتادة : صدقة الفطر . ولم يريدوا أن الآية لم تتناول إلا هي، بل مقصودهم: أن من أعطى صدقة الفطر ، وصلى صلاة العيد فقد تناولته وما بعدها ، ولهذا / كان يزيد بن ١٠/٦٣٣
حبيب ، كلما خرج إلى الصلاة خرج بصدقة ، ويتصدق بها ،قبل الصلاة ، ولو لم يجد

---

(١) بياض بالأصل.

إلا بصلاً. قال الحسن: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى﴾ من كان عمله زاكياً ، وقال أبو الأحوص: زكاة الأمور كلها ، وقال الزجاج: تزكى بطاعة الله عز وجل ، ومعنى الزاكي: النامي الكثير.

وكذلك قالوا في قوله: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ . الَّذِينَ لا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾[فصلت: ٦، ٧] قال ابن عباس: لايشهدون أن لا إله إلا الله، وقال مجاهد : لا يزكون أعمالهم أي ليست زاكية، وقيل لا يطهرونها بالإخلاص ، كأنه أراد ـ والله أعلم ـ أهل الرياء، فإنه شرك . وعن الحسن: لا يؤمنون بالزكاة، ولا يقرون بها . وعن الضحاك: لا يتصدقون ، ولا ينفقون في الطاعة ، وعن ابن السائب: لا يعطون زكاة أموالهم. قال: كانوا يحجون ويعتمرون ولا يزكون.

والتحقيق أن الآية تتناول كل ما يتزكى به الإنسان من التوحيد والأعمال الصالحة. كقوله: ﴿ هَل لَّكَ إِلَىٰ أَن تَزَكَّىٰ﴾ [النازعات: ١٨] ، وقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى﴾ [الأعلى: ١٤] ،والصدقة المفروضة لم تكن فرضت عند نزولها.

فإن قيل: ﴿يؤتي﴾ فعل متعد.

قيل: هذا كقوله: ﴿ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لآتَوْهَا﴾ [الأحزاب: ١٤]، وتقدم قبلها أن / الرسول ١٠/٦٣٤
دعاهم، وهو طلب منه، فكان هذا اللفظ متضمناً قيام الحجة عليهم بالرسل، والرسل إنما يدعونهم لما تزكو به أنفسهم.

ومما يليق: أن الزكاة تستلزم الطهارة؛ لأن معناها معنى الطهارة. قوله: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ﴾ من الشر﴿ وَتُزَكِّيهِم ﴾ [التوبة: ١٠٣] بالخير قال ﷺ: « اللَّهم طهرني بالماء والبرد والثلج » (١) كان يدعو به في الاستفتاح وفي الاعتدال من الركوع، والغسل.

فهذه الأمور توجب تبريد المغسول بها ،و«البرد» يعطي قوة وصلابة، ومايسر يوصف بالبرد وقرة العين؛ ولهذا كان دمع السرور بارداً، ودمع الحزن حاراً؛ لأن مايسوء النفس يوجب حزنها وغمها، وما يسرها يوجب فرحها وسرورها وذلك مما يبرد الباطن.

فسأل النبي ﷺ : أن يغسل الذنوب على وجه يبرد القلوب أعظم برد يكون بما فيه من الفرح والسرور الذي أزال عنه ما يسوء النفس من الذنوب.

وقوله: بالثلج والبرد والماء البارد: تمثيل بما فيه من هذا الجنس ، وإلا فنفس الذنوب

(١) مسلم في الصلاة (٤٧٦/٤٠٢) وأحمد ٤/ ٣٥٤، ٣٨١.

لا تغسل بذلك، كما يقال: أذقنا برد عفوك، وحلاوة مغفرتك. ولما قضى أبو قتادة دين المدين قال ﷺ: « الآن / برّدت جلدته» (١)، ويقال: برد اليقين، وحرارة الشك، ١٠/٦٣٥ ويقال: هذا الأمر يثلج له الصدر، إذا كان حقاً يعرفه القلب ويفرح به، حتى يصير في مثل برد الثلج، ومرض النفس: إما شبهة وإما شهوة أو غضب ، والثلاثة توجب السخونة، ويقال لمن نال مطلوبه: برد قلبه، فإن الطالب فيه حرارة الطلب.

وقوله: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ :دليل على أن عمل الحسنات يطهر النفس ويزكيها من الذنوب السالفة، فإنه قاله بعد قوله: ﴿وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا﴾الآية [التوبة: ١٠٢] . فالتوبة والعمل الصالح يحصل بهما التطهير والتزكية ولهذا قال في سياق قوله: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا﴾الآيات [النور: ٣٠] ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ﴾ الآية [النور: ٣١] . فأمرهم جميعاً بالتوبة في سياق ما ذكره ؛ لأنه لا يسلم أحد من هذا الجنس. كما في الصحيح: « إن الله كتب على ابن آدم حظه من الزنا » الحديث (٢) . وكذلك في الصحيح: إن قوله: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ [هود: ١١٤] نزلت بسبب رجل نال من امرأة كل شيء إلا الجماع ، ثم ندم فنزلت (٣).

ويحتاج المسلم في ذلك إلى أن يخاف الله، وينهى النفس عن الهوى ، ونفس الهوى والشهوة لا يعاقب عليه، بل على اتباعه والعمل به، فإذا كانت النفس تهوى وهو ينهاها كان نهيه عبادة لله، وعملاً صالحاً، وثبت عنه أنه قال: « المجاهد من جاهد نفسه في ذات الله» (٤)، فيؤمر بجهادها / كما يؤمر بجهاد من يأمر بالمعاصي ويدعو إليها، وهو إلي جهاد ١٠/٦٣٦ نفسه أحوج ، فإن هذا فرض عين وذاك فرض كفاية، والصبر في هذا من أفضل الأعمال، فإن هذا الجهاد حقيقة ذلك الجهاد، فمن صبر عليه صبر على ذلك الجهاد. كما قال: «والمهاجر من هجر السيئات» (٥).

ثم هذا لا يكون محموداً فيه، إلا إذا غلب، بخلاف الأول فإنه من ﴿فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾[النساء: ٧٤]، ولهذا قال ﷺ: «ليس الشديد بالصرعة . . . »إلخ(٦)؛

---

(١) أحمد ٣/ ٣٣٠ .

(٢) البخارى فى الاستئذان (٦٣٤٣) ومسلم فى القدر (٢٦٥٧/ ٢٠) .

(٣) البخارى فى التفسير (٤٦٨٧) ، ومسلم فى التوبة (٢٧٦٣/ ٣٩ ـ ٤١) ، والترمذى فى التفسير (٣١١٤) ، والنسائى فى التفسير (٢٦٧) ، وابن ماجه فى إقامة الصلاة (١٣٩٨) ، كلهم عن ابن مسعود .

(٤) الترمذى فى فضائل الجهاد (١٦٢١) ، وقال: « حديث حسن صحيح » ، وأحمد ٦/ ٢٠ ، ٢٢ ، كلاهما عن فضالة بن عبيد .

(٥) البخارى فى الرقاق (٦٤٨٤) وأحمد ٢/ ١٦٣، ١٩٢ .

(٦) مسلم فى البر والصلة (٢٦٠٩ / ١٠٧) وأحمد ١/ ٣٨٢) .

وذلك لأن اللّه أمر الإنسان أن ينهي النفس عن الهوى ، وأن يخاف مقام ربه، فحصل له من الإيمان ما يعينه على الجهاد ، فإذا غلب كان لضعف إيمانه، فيكون مفرطًا بترك المأمور، بخلاف العدو الكافر فإنه قد يكون بدنه أقوى.

فالذنوب إنما تقع إذا كانت النفس غير ممتثلة لما أمرت به، ومع امتثال المأمور لا تفعل المحظور، فإنهما ضدان. قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ﴾ الآية [يوسف: ٢٤] . وقال: ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ [الحجر : ٤٢، الإسراء : ٦٥] فعباد اللّه المخلصون لا يغويهم الشيطان، والغي خلاف الرشد ، وهو اتباع الهوى، فمن مالت نفسه إلى محرم، فليأت بعبادة اللّه كما أمر اللّه مخلصًا له الدين، فإن ذلك يصرف عنه السوء
١٠/٦٣٧ والفحشاء. . . . (١) خشية ومحبة ، والعبادة له / وحده، وهذا يمنع من السيئات.

فإذا كان تائباً ، فإن كان ناقصاً، فوقعت السيئات من صاحبه كان ماحيا لها بعد الوقوع، فهو كالترياق الذي يدفع أثر السم، ويرفعه بعد حصوله، وكالغذاء من الطعام والشراب، وكالاستمتاع بالحلال الذي يمنع النفس عن طلب الحرام، فإذا حصل له طلب إزالته ، وكالعلم الذي يمنع من الشك، ويرفعه بعد وقوعه، وكالطب الذي يحفظ الصحة ويدفع المرض، وكذلك ما في القلب من الإيمان يحفظ بأشباهه مما يقوم به.

وإذا حصل منه مرض من الشبهات والشهوات أزيل بهذه، ولا يحصل المرض إلا لنقص أسباب الصحة، كذلك القلب لا يمرض إلا لنقص إيمانه. وكذلك الإيمان والكفران متضادان، فكل ضدين: فأحدهما يمنع الآخر تارة، ويرفعه أخرى، كالسواد والبياض. . .(٢) حصل موضعه ويرفعه إذا كان حاصلاً ، كذلك الحسنات والسيئات والإحباط. . . (٣) والمعتزلة إن الكبيرة تحبط الحسنات حتى الإيمان ، وإن من مات عليها لم يكن . . . (٤) الجبائي وابنه بالموازنة. لكن قالوا: من رجحت سيئاته خلد في النار ، والموازنة بلا تخليد قول. . . (٥) الإحباط ما أجمع عليه وهو حبوط الحسنات كلها بالكفر كما قال: ﴿ مَن
١٠/٦٣٨ يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ ﴾الآية[البقرة: ٢١٧] ، وقوله: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِالإِيمَانِ / فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ﴾ الآية [المائدة :٥] ، وقال : ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنعام: ٨٨]، وقال: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ الآية [الزمر: ٦٥] .

وما ادعته المعتزلة مخالف لأقوال السلف، فإنه سبحانه ذكر حد الزاني وغيره، ولم يجعلهم كفاراً حابطي الأعمال ، ولا أمر بقتلهم كما أمر بقتل المرتدين، والمنافقون لم يكونوا يظهرون كفرهم . والنبي ﷺ أمر بالصلاة على الغال ، وعلى قاتل نفسه ، ولو

(١-٥) بياض بالأصل.

كانوا كفاراً ومنافقين لم تجز الصلاة عليهم. فعلم أنهم لم يحبط إيمانهم كله. وقال عمن شرب الخمر: «لا تلعنه فإنه يحب الله ورسوله» (١) وذلك الحب من أعظم شعب الإيمان. فعلم أن إدمانه لا يذهب الشعب كلها، وثبت من وجوه كثيرة: « يخرج من النار من في قلبه مثقال ذرة من إيمان» (٢) ولو حبط لم يكن في قلوبهم شيء منه. وقال تعالى: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ﴾الآية[فاطر: ٣٢] . فجعل من المصطفين.

فإذا كانت السيئات لا تحبط جميع الحسنات، فهل تحبط بقدرها وهل يحبط بعض الحسنات بذنب دون الكفر؟ فيه قولان للمنتسبين إلى السنة. منهم من ينكره، ومنهم من يثبته، كما دلت عليه النصوص، مثل قوله: ﴿لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأَذَىٰ﴾ الآية[البقرة: ٢٦٤]. دل على أن هذه السيئة تبطل الصدقة، وضرب مثله بالمرائي، وقالت عائشة : ابلغي زيداً أن جهاده بطل. الحديث.

/ وأما قوله: ﴿ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ﴾ [الحجرات: ٢]، وحديث صلاة العصر (٣) ففي ذلك نزاع . وقال تعالى: ﴿وَلا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ ﴾ [محمد: ٣٣] قال الحسن: بالمعاصي والكبائر، وعن عطاء : بالشرك والنفاق ، وعن ابن السائب: بالرياء والسمعة، وعن مقاتل: بالمن. وذلك أن قوماً منوا بإسلامهم، فما ذكر عن الحسن يدل على أن المعاصي والكبائر تحبط الأعمال. ١٠/٦٣٩

فإن قيل: لم يرد إلا إبطالها بالكفر.

قيل: ذلك منهي عنه في نفسه، وموجب للخلود الدائم، فالنهي عنه لا يعبر عنه بهذا، بل يذكره على وجه التغليظ. كقوله: ﴿مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ﴾ [المائدة: ٥٤] ونحوها. والله سبحانه في هذه وفي آية المن سماها إبطالا، ولم يسمه إحباطاً؛ ولهذا ذكر بعدها الكفر بقوله: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ ﴾ الآية[محمد: ٣٤] .

فإن قيل: المراد إذا دخلتم فيها فأتموها ، وبها احتج من قال : يلزم التطوع بالشروع فيه.

قيل: لو قدر أن الآية تدل على أنه منهي عن إبطال بعض العمل، فإبطاله كله أولى،

---

(١) البخاري في الحدود (٦٧٨٠).

(٢) البخاري في التوحيد (٧٥١٠) ومسلم في الإيمان (٩١/١٤٨).

(٣) البخاري في مواقيت الصلاة (٥٥٣)، والنسائي في الصلاة (٤٧٤)، وابن ماجه في الصلاة (٦٩٤)، وأحمد ٥/٣٥٧، كلهم عن بريدة الأسلمي.

بدخوله فيها فكيف وذلك قبل فراغه لا يسمى صلاة ولا صوماً؟!

١٠/٦٤٠ ثم يقال: الإبطال يوجد قبل الفراغ أو بعده، وما ذكروه أمر بالإتمام، والإبطال هو إبطال الثواب، ولا نسلم أن من لم يتم العبادة يبطل جميع ثوابه، بل يقال: إنه يثاب على ما فعل من ذلك. وفي الصحيح حديث المفلس«الذي يأتي بحسنات أمثال الجبال»(١).

(١) ابن ماجه في الزهد (٤٢٤٥)، وفي الزوائد: «إسناده صحيح، ورجاله ثقات. وأبو عامر الألهانيّ اسمه عبد الله بن غابر»، عن ثوبان.

/ سُئلَ شَيْخ الإسْلام ـ قدس الله روحه ـ عن رجل تفقه وعلم ما أمر ١٠/٦٤١
الله به وماَ نهى عنه، ثم تَزهد وترك الدنيا والمال والأهل والأولاد خائفاً من كسب الحرام والشبهات، وبعث الآخرة وطلب رضا الله ورسوله، وساح في أرض الله والبلدان ،فهل يجوز له أن يقطع الرحم ويسيح كما ذكر أم لا؟

فأجـــاب :

الحمد لله وحده، الزهد المشروع هو ترك كل شيء لا ينفع في الدار الآخرة، وثقة القلب بما عند الله، كما في الحديث الذي في الترمذي «ليس الزهد في الدنيا بتحريم الحلال، ولا إضاعة المال، ولكن الزهد أن تكون بما في يد الله أوثق بما في يدك، وأن تكون في ثواب المصيبة إذا أصبت أرغب منك فيها لو أنها بقيت لك» (١) لأن الله تعالى يقول: ﴿ لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ [الحديد: ٢٣]. فهذا صفة القلب.

/ وأما في الظاهر، فترك الفضول التي لا يستعان بها على طاعة الله من مطعم وملبس ١٠/٦٤٢
ومال وغير ذلك، كما قال الإمام أحمد: إنما هو طعام دون طعام، ولباس دون لباس، وصبر أيام قلائل.

وجماع ذلك خلق رسول الله ﷺ ، كما ثبت عنه في الصحيح أنه كان يقول: «خير الكلام كلام الله، وخير الهدى هدى محمد، وشر الأمور محدثاتها، وكل بدعة ضلالة»(٢). وكان عادته في المطعم أنه لا يرد موجوداً، ولا يتكلف مفقوداً، ويلبس من اللباس ما تيسر من قطن وصوف وغير ذلك، وكان القطن أحب إليه، وكان إذا بلغه أن بعض أصحابه يريد أن يعتدي فيزيد في الزهد، أو العبادة على المشروع، ويقول: أينا مثل رسول الله ﷺ ؟! يغضب لذلك، ويقول: «والله إني لأخشاكم لله، وأعلمكم بحدود الله تعالى» وبلغه أن بعض أصحابه قال: أما أنا فأصوم فلا أفطر، وقال الآخر: أما أنا فأقوم فلا أنام، وقال آخر: أما أنا فلا أتزوج النساء، وقال آخر: أما أنا فلا آكل اللحم، فقال ﷺ: « لكني أصوم وأفطر ، وأقوم وأنام، وأتزوج النساء ، وآكل اللحم، فمن رغب عن سنتي فليس مني» (٣).

---

(١) الترمذي في الزهد (٢٣٤٠)، وقال: « حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه»، عن أبي ذر.
(٢) مسلم في الجمعة (٨٦٧/ ٤٣).
(٣) سبق تخريجه ص ٣٥٠.

فأما الإعراض عن الأهل والأولاد فليس مما يحبه اللّه ورسوله، ولا هو من دين الأنبياء؛ بل قد قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن / قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً ﴾ ١٠/٦٤٣ [الرعد:٣٨] والإنفاق على العيال والكسب لهم يكون واجباً تارة ومستحباً أخرى، فكيف يكون ترك الواجب أو المستحب من الدين.

وكذلك السياحة في البلاد لغير مقصود مشروع، كما يعانيه بعض النساك أمر منهي عنه، قال الإمام أحمد: ليست السياحة من الإسلام في شيء ، ولا من فعل النبيين ولا الصالحين.

وأما السياحة المذكورة في القرآن من قوله: ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ﴾ [التوبة:١١٢] ومن قوله: ﴿مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا﴾ [التحريم:٥] فليس المراد بها هذه السياحة المبتدعة؛ فإن اللّه قد وصف النساء اللاتي يتزوجهن رسوله بذلك، والمرأة المزوجة لا يشرع لها أن تسافر في البراري سائحة، بل المراد بالسياحة شيئان:

أحدهما: الصيام . كما روى عمرو بن دينار عن يحيى بن جعدة عن النبي ﷺ أنه قال: «الحلال بين ، والحرام بين، وبينهما أمور مشتبهات لا يعلمهن كثيرمن الناس، فمن ترك الشبهات فقد استبرأ لعرضه ودينه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام، كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يواقعه ، ألا وإن لكل / ملك حمى، ألا وإن حمى اللّه ١٠/٦٤٤ محارمه، ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، إلا وهي القلب». متفق عليه (١).

لكن إذا ترك الإنسان الحرام، أو الشبهة ، بترك واجب أو مستحب، وكان الإثم أو النقص الذي عليه في الترك أعظم من الإثم الذي عليه في الفعل لم يشرع ذلك، كما ذكر أبو طالب المكي وأبو حامد الغزالي ، عن الإمام أحمد بن حنبل أنه سئل عمن ترك ما لا شبهة فيه وعليه دين؟ فسأله ولده أترك هذا المال الذي فيه شبهة فلا أقضيه؟ فقال له: أتدع. . . (٢).

---

(١) البخاري في الإيمان (٥٢) ومسلم في المساقاة (١٥٩٩/١٠٧).

(٢) بياض بالأصل.

/ سُئِلَ شَيْخُ الإسلام أَبُو الْعَبَّاس أحمد بن تيمية ـ رحمه اللّه ـ عن ١٠/٦٤٥

قوله تعالى : ﴿ **حَقُّ الْيَقِين** ﴾ [الواقعة : ٩٥] و﴿ **عَيْنَ الْيَقِين** ﴾[التكاثر : ٧] و﴿ **عِلْمَ الْيَقِين**﴾ [التكاثر : ٥] **فما معنى كل مقام منها؟ وأي مقام أعلى؟.**

فأجـاب:

الحمد للّه رب العالمين ، للناس في هذه الأسماء مقالات معروفة.

منها: أن يقال: ﴿ **علْمَ الْيَقِين** ﴾ما علمه بالسماع والخبر والقياس والنظر، و﴿**عَيْنَ الْيَقِين**﴾ ما شاهده وعاينه بالبصر، و﴿**حَقُّ الْيَقِين**﴾ ما باشره ووجده وذاقه وعرفه بالاعتبار.

فالأول: مثل من أخبر أن هناك عسلاً ، وصدق المخبر. أو رأى آثار العسل فاستدل على وجوده.

والثاني: مثل من رأى العسل وشاهده وعاينه، وهذا أعلى كما قال النبي ﷺ : « ليس المخبر كالمعاين» (١).

/ **والثالث**: مثل من ذاق العسل، ووجد طعمه وحلاوته، ومعلوم أن هذا أعلى مما ١٠/٦٤٦ قبله؛ ولهذا يشير أهل المعرفة إلى ما عندهم من الذوق والوجد، كما قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح : «ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: من كان اللّه ورسوله أحب إليه مما سواهما، ومن كان يحب المرء لا يحبه إلا للّه، ومن كان يكره أن يرجع إلى الكفر بعد إذ أنقذه اللّه منه كما يكره أن يلقي في النار» (٢) ،وقال ﷺ: « ذاق طعم الإيمان: من رضى باللّه ربًا ،وبالإسلام دينًا ، وبمحمد رسولاً» (٣) فالناس فيما يجده أهل الإيمان ويذوقونه من حلاوة الإيمان وطعمه على ثلاث درجات:

الأولى: من علم ذلك مثل من يخبره به شيخ له يصدقه ، أو يبلغه ما أخبر به العارفون عن أنفسهم، أو يجد من آثار أحوالهم ما يدل على ذلك.

والثانية: من شاهد ذلك وعاينه، مثل أن يعاين من أحوال أهل المعرفة والصدق واليقين ما يعرف به مواجيدهم وأذواقهم، وإن كان هذا في الحقيقة لم يشاهد ما ذاقوه ووجدوه، ولكن شاهد ما دل عليه لكن هو أبلغ من المخبر، والمستدل بآثارهم.

---

(١) أحمد ١/ ٢٧١ وقال الهيثمى فى المجمع ١/ ١٥٨: « رجاله رجال الصحيح وصححه ابن حبان » عن ابن عمر .
(٢، ٣) سبق تخريجهما ص ٣٢ .

١٠/٦٤٧ **والثالثة**: أن يحصل له من الذوق والوجد في نفسه ما كان / سمعه، كما قال بعض الشيوخ: لقد كنت في حال أقول فيها: إن كان أهل الجنة في الجنة في مثل هذا الحال إنهم لفي عيش طيب. وقال آخر: إنه ليمر على القلب أوقات يرقص منها طربًا. وقال الآخر: لأهل الليل في ليلهم ألذ من أهل اللهو في لهوهم.

والناس فيما أخبروا به من أمر الآخرة على ثلاث درجات:

إحداها: العلم بذلك لما أخبرتهم الرسل، وما قام من الأدلة على وجود ذلك.

الثانية: إذا عاينوا ما وعدوا به من الثواب والعقاب والجنة والنار.

والثالثة: إذا باشروا ذلك؛ فدخل أهل الجنة الجنة، وذاقوا ما كانوا يوعدون، ودخل أهل النار النار، وذاقوا ما كانوا يوعدون، فالناس فيما يوجد في القلوب، وفيما يوجد خارج القلوب على هذه الدرجات الثلاث.

وكذلك في أمور الدنيا: فإن من أخبر بالعشق أو النكاح ولم يره ولم يذقه كان له علم به، فإن شاهده ولم يذقه كان له معاينة له، فإن ذاقه بنفسه كان له ذوق وخبرة به، ومن لم ١٠/٦٤٨ يذق الشيء لم يعرف حقيقته، فإن / العبارة إنما تفيد التمثيل والتقريب. وأما معرفة الحقيقة فلا تحصل بمجرد العبارة، إلا لمن يكون قد ذاق ذلك الشيء المعبر عنه، وعرفه وخبره؛ ولهذا يسمون أهل المعرفة؛ لأنهم عرفوا بالخبرة والذوق ما يعلمه غيرهم بالخبر والنظر، وفي الحديث الصحيح: «أن هرقل ملك الروم سأل أبا سفيان بن حرب فيما سأله عنه من أمور النبي ﷺ قال: فهل يرجع أحد منهم عن دينه سخطة له بعد أن يدخل فيه؟ قال: لا، قال: وكذلك الإيمان إذا خالطت بشاشته القلب لا يسخطه أحد»(١).

فالإيمان إذا باشر القلب وخالطته بشاشته لا يسخطه القلب، بل يحبه ويرضاه، فإن له من الحلاوة في القلب واللذة والسرور والبهجة ما لا يمكن التعبير عنه لمن لم يذقه، والناس متفاوتون في ذوقه والفرح والسرور الذي في القلب له من البشاشة ما هو بحسبه، وإذا خالطت القلب لم يسخطه، قال تعالى: ﴿ **قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ** ﴾ [يونس: ٥٨]، وقال تعالى: ﴿ **وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُ** ﴾ [الرعد: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿ **وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ** ﴾ [التوبة: ١٢٤]

---

(١) البخاري في بدء الوحي (٧)، عن ابن عباس.

فأخبر ـ سبحانه ـ أنهم يستبشرون بما أنزل من القرآن، والاستبشار هو الفرح والسرور ؛ وذلك لما يجدونه في قلوبهم من الحلاوة واللذة والبهجة بما أنزل الله.

/ واللذة أبدا تتبع المحبة فمن أحب شيئًا ونال ما أحبه وجد اللّذة به؛ فالذوق هو إدراك المحبوب ، اللذة الظاهرة كالأكل مثلاً: حال الإنسان فيها أنه يشتهي الطعام ويحبه، ثم يذوقه ويتناوله فيجد حينئذ لذته وحلاوته، وكذلك النكاح وأمثال ذلك. ١٠/٦٤٩

وليس للخلق محبة أعظم ولا أكمل ولا أتم من محبة المؤمنين لربهم،وليس في الوجود ما يستحق أن يحب لذاته من كل وجه إلا الله تعالى،وكل ما يحب سواه فمحبته تبع لحبه،فإن الرسول عليه الصلاة والسلام إنما يحب لأجل الله،ويطاع لأجل الله، ويتبع لأجل الله. كما قال تعالى: ﴿**قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ**﴾[آل عمران: ٣١]، وفي الحديث: « أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمه، وأحبوني لحب الله، وأحبوا أهل بيتي لحبي» (١) ،وقال تعالى: ﴿ **قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ**﴾ إلى قوله: ﴿ **أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ**﴾ [التوبة: ٢٤]، وقال النبي ﷺ :« لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين» (٢) وفي حديث الترمذي وغيره:«من أحب لله، وأبغض لله، وأعطى لله، ومنع لله، فقد استكمل الإيمان» (٣) وقال تعالى: ﴿ **وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ** ﴾ [البقرة: ١٦٥]، فالذين آمنوا أشد حباً لله، من كل محب لمحبوبه، وقد بسطنا الكلام على هذا في مواضع متعددة.

/ والمقصود هنا أن أهل الإيمان يجدون بسبب محبتهم لله ولرسوله من حلاوة الإيمان ما يناسب هذه المحبة ، ولهذا علق النبي ﷺ ما يجدونه بالمحبة فقال:« ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار» (٤). ١٠/٦٥٠

ومن ذلك ما يجدونه من ثمرة التوحيد والإخلاص، والتوكل والدعاء لله وحده، فإن الناس في هذا الباب على ثلاث درجات:

منهم :من علم ذلك سماعاً واستدلالاً.

ومنهم :من شاهد وعاين ما يحصل لهم.

---

(١) سبق تخريجه ص ٥٣.

(٢) سبق تخريجه ص ٤٢.

(٣) سبق تخريجه ص ٥٢.

(٤) سبق تخريجه ص ٤٢.

ومنهم : من وجد حقيقة الإخلاص والتوكل على الله، والالتجاء إليه، والاستعانة به، وقطع التعلق بما سواه، وجرب من نفسه أنه إذا تعلق بالمخلوقين ورجاهم، وطمع فيهم أن يجلبوا له منفعة أو يدفعوا عنه مضرة، فإنه يخذل من جهتهم، ولا يحصل مقصوده ، بل قد يبذل لهم من الخدمة والأموال وغير ذلك ما يرجو أن ينفعوه وقت حاجته إليهم، فلاينفعونه: إما لعجزهم ، وإما لانصراف قلوبهم عنه، وإذا / توجه إلى الله بصدق ١٠/٦٥١
الافتقار إليه، واستغاث به مخلصاً له الدين ، أجاب دعاءه؛ وأزال ضرره، وفتح له أبواب الرحمة. فمثل هذا قد ذاق من حقيقة التوكل والدعاء لله، ما لم يذق غيره. وكذلك من ذاق طعم إخلاص الدين لله وإرادة وجهه دون ما سواه؛ يجد من الأحوال والنتائج والفوائد مالا يجده من لم يكن كذلك.

بل من اتبع هواه في مثل طلب الرئاسة والعلو؛ وتعلقه بالصور الجميلة، أو جمعه للمال يجد في أثناء ذلك من الهموم والغموم والأحزان والآلام وضيق الصدر ما لا يعبر عنه، وربما لا يطاوعه قلبه على ترك الهوى ، ولا يحصل له ما يسره، بل هو في خوف وحزن دائماً، إن كان طالباً لما يهواه فهو قبل إدراكه حزين متألم حيث لم يحصل. فإذا أدركه كان خائفًا من زواله وفراقه.

وأولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، فإذا ذاق هذا أو غيره حلاوة الإخلاص لله، والعبادة له، وحلاوة ذكره ومناجاته، وفهم كتابه، وأسلم وجهه لله وهو محسن بحيث يكون عمله صالحاً، ويكون لوجه الله خالصاً، فإنه يجد من السرور واللذة والفرح ما هو أعظم مما يجده الداعي المتوكل الذي نال بدعائه وتوكله ما ينفعه من الدنيا . أو اندفع عنه ما يضره ، فإن حلاوة ذلك هي بحسب ما حصل له من / المنفعة ، أو اندفع عنه من ١٠/٦٥٢
المضرة، ولا أنفع للقلب من التوحيد وإخلاص الدين لله، ولا أضر عليه من الإشراك.

فإذا وجد حقيقة الإخلاص التي هي حقيقة ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ مع حقيقة التوكل التي هي حقيقة ﴿ إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾، كان هذا فوق ما يجده كل أحد لم يجد مثل هذا . والله أعلم.

/ سؤال أبي القاسم المغربي يتفضل الشيخ الإمام بقية السلف ، وقدوة الخلف، أعلم من لقيت ببلاد المشرق والمغرب ، تقي الدين أبو العباس أحمد بن تيمية ، بأن يوصيني بما يكون فيه صلاح ديني ودنياي، ويرشدني إلى كتاب يكون عليه اعتمادي في علم الحديث، وكذلك في غيره من العلوم الشرعية وينبهني على أفضل الأعمال الصالحة بعد الواجبات، ويبين لي أرجح المكاسب، كل ذلك على قصد الإيماء والاختصار، والله تعالى يحفظه . والسلام الكريم عليه ورحمة الله وبركاته. ٦٥٣/ ١٠

فأجـــاب :

الحمد لله رب العالمين،أما الوصية: فما أعلم وصية أنفع من وصية الله ورسوله لمن عقلها / واتبعها، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ﴾ [النساء: ١٣١]. ٦٥٤/ ١٠

ووصى النبي ﷺ معاذاً لما بعثه إلى اليمن فقال: «يامعاذ، اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن» (١).

وكان معاذ ـ رضي الله عنه ـ من النبي ﷺ بمنزلة علية؛ فإنه قال له: «يامعاذ، والله، إني لأحبك» (٢) وكان يردفه وراءه. وروى فيه: «أنه أعلم الأمة بالحلال والحرام» (٣) «وأنه يحشر إمام العلماء برتوة ـ أي بخطوة » (٤). ومن فضله أنه بعثه النبي ﷺ مبلغًا عنه داعياً ومفقهاً ومفتياً وحاكمًا إلى أهل اليمن.

وكان يشبهه بإبراهيم الخليل ـ عليه السلام ـ وإبراهيم إمام الناس. وكان ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ يقول: إن معاذاً كان أمة قانتاً لله حنيفاً ولم يك من المشركين ؛ تشبيهاً له بإبراهيم.

ثم إنه ﷺ وصاه هذه الوصية ، فعلم أنها جامعة وهي كذلك لمن عقلها، مع أنها تفسير الوصية القرآنية.

أما بيان جمعها؛ فلأن العبد عليه حقان:

/حق لله عز وجل ، وحق لعباده . ثم الحق الذي عليه لابد أن يخل ببعضه أحياناً: ٦٥٥/ ١٠

(١) الترمذي في البر والصلة (١٩٨٧) وقال :« حديث حسن صحيح »، وأحمد ٥ / ١٥٣ .

(٢) أبو داود في الصلاة (١٥٢٢)، وأحمد ٥/ ٢٢٩.

(٣) الترمذي في المناقب (٣٧٩١) وقال:« حديث حسن صحيح»، والنسائي في الكبرى في المناقب (٨٢٤٢)، وابن ماجه في المقدمة (١٥٤)، كلهم عن أنس.

(٤) ذكره الهيثمي في المجمع ٩/ ٣١٤ وقال:« رواه الطبراني مرسلاً وفيه محمد بن عبد الله بن أزهر الأنصاري ، ولم أعرفه، وبقية رجاله رجال الصحيح».

إما بترك مأمور به، أو فعل منهي عنه. فقال النبي ﷺ: « اتق اللّه حيثما كنت» وهذه كلمة جامعة، وفي قوله: « حيثما كنت» تحقيق لحاجته إلى التقوى في السر والعلانية . ثم قال: « وأتبع السيئة الحسنة تمحها» فإن الطبيب متى تناول المريض شيئًا مضراً أمره بما يصلحه. والذنب للعبد كأنه أمر حتم، فالكيس هو الذي لا يزال يأتي من الحسنات بما يمحو السيئات. وإنما قدم في لفظ الحديث«السيئة» وإن كانت مفعولة، لأن المقصود هنا محوها لا فعل الحسنة، فصار كقوله في بول الأعرابي :«صبوا عليه ذنوباً من ماء» (١).

وينبغي أن تكون الحسنات من جنس السيئات، فإنه أبلغ في المحو والذنوب يزول موجبها بأشياء:

أحدها: التوبة.

والثاني: الاستغفار من غير توبة. فإن اللّه تعالى قد يغفر له إجابة لدعائه وإن لم يتب، فإذا اجتمعت التوبة والاستغفار فهو الكمال.

١٠/٦٥٦ **الثالث**: الأعمال الصالحة المكفرة: إما الكفارات المقدرة،/ كما يكفر المجامع في رمضان والمظاهر والمرتكب لبعض محظورات الحج أو تارك بعض واجباته، أو قاتل الصيد بالكفارات المقدرة، وهي أربعة أجناس: هدى وعتق وصدقة وصيام.

وإما الكفارات المطلقة، كما قال حذيفة لعمر: فتنة الرجل في أهله وماله وولده، يكفرها الصلاة والصيام والصدقة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وقد دل على ذلك القرآن والأحاديث الصحاح في التكفير بالصلوات الخمس، والجمعة والصيام، والحج وسائر الأعمال التي يقال فيها: من قال كذا وعمل كذا غفر له، أو غفر له ما تقدم من ذنبه، وهي كثيرة لمن تلقاها من السنن خصوصاً ما صنف في فضائل الأعمال.

واعلم أن العناية بهذا من أشد ما بالإنسان الحاجة إليه؛ فإن الإنسان من حين يبلغ؛ خصوصاً في هذه الأزمنة ونحوها من أزمنة الفترات التي تشبه الجاهلية من بعض الوجوه، فإن الإنسان الذي ينشأ بين أهل علم ودين قد يتلطخ من أمور الجاهلية بعدة أشياء ، فكيف بغير هذا؟!.

وفي الصحيحين عن النبي ﷺ من حديث أبي سعيد ـ رضي اللّه عنه ـ: « لتتبعن سنن ١٠/٦٥٧ من كان قبلكم حذو القذة بالقذة / حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه ». قالوا: يا رسول اللّه، اليهود والنصارى ؟ قال: «فمن؟» (٢) هذا خبر تصديقه في قوله تعالى:

---

(١) البخاري في الأدب (٦١٢٨) ومسلم في الطهارة (٢٨٤/٩٩).

(٢) سبق تخريجه ص ٣٧.

﴿فَاسْتَمْتَعْتُم بِخَلَاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَاقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا﴾ [التوبة: ٦٩]، ولهذا شواهد في الصحاح والحسان.

وهذا أمر قد يسري في المنتسبين إلى الدين من الخاصة ، كما قال غير واحد من السلف منهم ابن عيينة، فإن كثيراً من أحوال اليهود قد ابتلى به بعض المنتسبين إلى العلم، وكثيراً من أحوال النصارى قد ابتلى به بعض المنتسبين إلى الدين ، كما يبصر ذلك من فهم دين الإسلام الذي بعث الله به محمداً ﷺ ، ثم نزله على أحوال الناس.

وإذا كان الأمر كذلك فمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه، وكان ميتًا فأحياه الله وجعل له نوراً يمشي به في الناس ، لابد أن يلاحظ أحوال الجاهلية وطريق الأمتين المغضوب عليهم والضالين من اليهود والنصارى، فيرى أن قد ابتلى ببعض ذلك.

فأنفع ما للخاصة والعامة العلم بما يخلص النفوس من هذه الورطات وهو اتباع السيئات الحسنات. والحسنات ما ندب الله إليه على لسان خاتم النبيين من الأعمال والأخلاق والصفات.

/ ومما يزيل موجب الذنوب المصائب المكفرة ،وهي كل ما يؤلم من هم أو حزن أو أذى في مال أو عرض أو جسد أو غير ذلك، لكن ليس هذا من فعل العبد. ١٠/٦٥٨

فلما قضى بهاتين الكلمتين حق الله: من عمل الصالح، وإصلاح الفاسد قال: «وخالق الناس بخلق حسن» (١)وهو حق الناس.

وجماع الخلق الحسن مع الناس: أن تصل من قطعك بالسلام والإكرام ،والدعاء له والاستغفار والثناء عليه، والزيارة له وتعطي من حرمك من التعليم والمنفعة والمال، وتعفو عمن ظلمك في دم أو مال أو عرض. وبعض هذا واجب ،وبعضه مستحب.

وأما الخلق العظيم الذي وصف الله به محمداً ﷺ ،فهو الدين الجامع لجميع ما أمر الله به مطلقاً ، هكذا قال مجاهد وغيره، وهو تأويل القرآن، كما قالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ:«كان خلقه القرآن» (٢) وحقيقته المبادرة إلى امتثال ما يحبه الله تعالى بطيب نفس وانشراح صدر.

وأما بيان أن هذا كله في وصية الله، فهو :أن اسم تقوى الله يجمع فعل كل ما أمر

(١) الترمذي في البر والصلة (١٩٨٧) وقال:« حسن صحيح» والدارمي في الرقائق ٢/ ٣٢٣ وأحمد ٥/ ١٥٣.
(٢) مسلم في صلاة المسافرين (٧٤٦/ ١٣٩).

١٠/٦٥٩ اللّه به إيجاباً واستحباباً، وما نهى عنه تحريماً / وتنزيهاً، وهذا يجمع حقوق اللّه وحقوق العباد. لكن لما كان تارة يعني بالتقوى خشية العذاب المقتضية للانكفاف عن المحارم، جاء مفسراً في حديث معاذ، وكذلك في حديث أبي هريرة ـ رضي اللّه عنهما ـ الذي رواه الترمذي وصححه: قيل: يارسول اللّه! ما أكثر ما يدخل الناس الجنة؟ قال: «تقوى اللّه وحسن الخلق». قيل: وما أكثر ما يدخل الناس النار؟ قال: «الأجوفان: الفم والفرج» (١).

وفي الصحيح عن عبد اللّه بن عمر ـ رضي اللّه عنهما ـ قال: قال رسول اللّه ﷺ: «أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً»(٢)فجعل كمال الإيمان في كمال حسن الخلق. ومعلوم أن الإيمان كله تقوى اللّه.

وتفصيل أصول التقوى وفروعها لايحتمله هذا الموضع؛ فإنها الدين كله، لكن ينبوع الخير وأصله: إخلاص العبد لربه عبادة واستعانة، كما في قوله: ﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**﴾ [الفاتحة: ٥]، وفي قوله: ﴿**فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ**﴾ [هود: ١٢٣]، وفي قوله: ﴿**عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ**﴾ [الشورى: ١٠]، وفي قوله: ﴿**فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ**﴾ [العنكبوت: ١٧]، بحيث يقطع العبد تعلق قلبه من المخلوقين انتفاعاً بهم أو عملاً لأجلهم، ويجعل همته ربه تعالى، وذلك بملازمة الدعاء له في كل مطلوب من فاقة
١٠/٦٦٠ وحاجة ومخافة وغير ذلك، / والعمل له بكل محبوب. ومن أحكم هذا فلا يمكن أن يوصف ما يعقبه ذلك.

وأما ما سألت عنه من أفضل الأعمال بعد الفرائض، فإنه يختلف باختلاف الناس فيما يقدرون عليه وما يناسب أوقاتهم، فلا يمكن فيه جواب جامع مفصل لكل أحد، لكن مما هو كالإجماع بين العلماء باللّه وأمره: إن ملازمة ذكر اللّه دائما هو أفضل ما شغل العبد به نفسه في الجملة، وعلى ذلك دل حديث أبي هريرة الذي رواه مسلم: «سبق المفردون»، قالوا: يارسول اللّه، ومن المفردون؟ قال: «الذاكرون اللّه كثيراً والذاكرات» (٣)، وفيما رواه أبو داود عن أبي الدرداء ـ رضي اللّه عنه ـ عن النبي ﷺ أنه قال: «ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم، وأرفعها في درجاتكم، وخير لكم من إعطاء الذهب والورق، ومن أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم؟» قالوا: بلى يارسول اللّه! قال: « ذكر اللّه» (٤).

---

(١) الترمذي في البر والصلة (٢٠٠٤) وقال: « صحيح غريب».

(٢) أحمد ٢/ ٢٥٠ وأبو داود في السنة (٤٦٨٢) والترمذي في الرضاع (١١٦٢) وقال: « حسن صحيح».

(٣) مسلم في الذكر والدعاء (٢٦٧٦/ ٤).

(٤) الترمذي في الدعوات (٣٣٧٧)، وابن ماجه في الأدب (٣٧٩٠)، وأحمد ٦/ ٤٤٧، ولم أجده في أبي داود.

والدلائل القرآنية والإيمانية بصراً وخبراً ونظراً على ذلك كثيرة.

وأقل ذلك أن يلازم العبد الأذكار المأثورة عن معلم الخير وإمام المتقين ﷺ، كالأذكار المؤقتة في أول النهار وآخره،/ وعند أخذ المضجع، وعند الاستيقاظ من المنام، وأدبار ١٠/٦٦١
الصلوات، والأذكار المقيدة مثل مايقال عند الأكل والشرب واللباس والجماع، ودخول المنزل والمسجد والخلاء والخروج من ذلك، وعند المطر والرعد إلى غير ذلك، وقد صنفت له الكتب المسماة بعمل اليوم والليلة.

ثم ملازمة الذكر مطلقاً وأفضله «لا إله إلا الله». وقد تعرض أحوال يكون بقية الذكر مثل: «سبحان الله والحمد لله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله» أفضل منه.

ثم يعلم أن كل ما تكلم به اللسان وتصوره القلب مما يقرب إلى الله، من تعلم علم وتعليمه، وأمر بمعروف ونهى عن منكر، فهو من ذكر الله. ولهذا من اشتغل بطلب العلم النافع بعد أداء الفرائض، أو جلس مجلسًا يتفقه أو يفقه فيه الفقه الذي سماه الله ورسوله فقها، فهذا أيضًا من أفضل ذكر الله. وعلى ذلك إذا تدبرت لم تجد بين الأولين في كلماتهم في أفضل الأعمال كبير اختلاف.

وما اشتبه أمره على العبد فعليه بالاستخارة المشروعة، فما ندم من استخار الله تعالى، وليكثر من ذلك ومن الدعاء، فإنه مفتاح كل خير، ولا يعجل فيقول: قد دعوت فلم يستجب لي، وليتحر الأوقات / الفاضلة، كآخر الليل، وأدبار الصلوات، وعند الأذان، ١٠/٦٦٢
ووقت نزول المطر، ونحو ذلك.

وأما أرجح المكاسب، فالتوكل على الله، والثقة بكفايته، وحسن الظن به. وذلك أنه ينبغي للمهتم بأمر الرزق أن يلجأ فيه إلى الله ويدعوه، كما قال سبحانه فيما يأثر عنه نبيه: «كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعموني أطعمكم. ياعبادي، كلكم عار إلا من كسوته فاستكسوني أكسكم» (١) وفيما رواه الترمذي عن أنس ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «ليسأل أحدكم ربه حاجته كلها حتى شسع نعله إذا انقطع، فإنه إن لم ييسره لم يتيسر» (٢).

وقد قال الله تعالى في كتابه: ﴿وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ﴾ [النساء: ٣٢]، وقال سبحانه: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ﴾ [الجمعة: ١٠] وهذا وإن كان في الجمعة فمعناه قائم في جميع الصلوات. ولهذا ـ والله أعلم ـ أمر النبي ﷺ الذي يدخل المسجد أن يقول: «اللهم افتح لي أبواب رحمتك» وإذا خرج أن يقول: «اللّهم إني

---

(١) سبق تخريجه ص ٥٥.

(٢) تحفة الأحوذى (٣٦٨٢).

أسألك من فضلك»[1] وقد قال الخليل ﷺ : ﴿ فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ﴾ [العنكبوت: ١٧] وهذا أمر، والأمر يقتضي الإيجاب فالاستعانة باللّه واللجأ إليه في أمر الرزق وغيره أصل عظيم.

١٠/٦٦٣ / ثم ينبغي له أن يأخذ المال بسخاوة نفس ليبارك له فيه، ولا يأخذه بإشراف وهلع؛ بل يكون المال عنده بمنزلة الخلاء الذي يحتاج إليه من غير أن يكون له في القلب مكانة، والسعي فيه إذا سعى كإصلاح الخلاء. وفي الحديث المرفوع الذي رواه الترمذي وغيره: «من أصبح والدنيا أكبر همه، شتت اللّه عليه شمله ، وفرق عليه ضيعته، ولم يأته من الدنيا إلا ما كتب له. ومن أصبح والآخرة أكبر همه، جمع اللّه عليه شمله، وجعل غناه في قلبه، وأتته الدنيا وهي راغمة»[2].

وقال بعض السلف : أنت محتاج إلى الدنيا، وأنت إلى نصيبك من الآخرة أحوج، فإن بدأت بنصيبك من الآخرة مر على نصيبك من الدنيا فانتظمه انتظاماً ، قال اللّه تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ . مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ . إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴾ [الذاريات: ٥٦-٥٨].

فأما تعيين مكسب على مكسب من صناعة أو تجارة أو بناية أو حراثة أو غير ذلك، فهذا يختلف باختلاف الناس، ولا أعلم في ذلك شيئًا عاماً، لكن إذا عن للإنسان جهة فليستخر اللّه تعالى فيها الاستخارة المتلقاة عن معلم الخير ﷺ، فإن فيها من البركة مالا يحاط به. ثم ما تيسر له فلا يتكلف غيره إلا أن يكون منه كراهة شرعية.

١٠/٦٦٤ / وأما ما تعتمد عليه من الكتب في العلوم ، فهذا باب واسع، وهو أيضاً يختلف باختلاف نشء الإنسان في البلاد ، فقد يتيسر له في بعض البلاد من العلم أو من طريقه ومذهبه فيه مالا يتيسر له في بلد آخر، لكن جماع الخير أن يستعين باللّه ـ سبحانه ـ في تلقي العلم الموروث عن النبي ﷺ ، فإنه هو الذي يستحق أن يسمى علماً، وما سواه إما أن يكون علماً فلا يكون نافعاً، وإما أن لا يكون علماً ، وإن سمي به، ولئن كان علماً نافعاً فلا بد أن يكون في ميراث محمد ﷺ ما يغني عنه مما هو مثله وخير منه. ولتكن همته فهم مقاصد الرسول في أمره ونهيه وسائر كلامه. فإذا اطمأن قلبه أن هذا هو مراد الرسول فلا يعدل عنه فيما بينه وبين اللّه تعالى ولامع الناس، إذا أمكنه ذلك.

---

(١) مسلم في صلاة المسافرين (٧١٣/ ٦٨) وأحمد ٣/ ٤٩٧.

(٢) الترمذي في صفة القيامة (٢٤٦٥) ، وابن ماجه في الزهد (٤١٠٥) ،وفي الزوائد :«إسناده صحيح، ورجاله ثقات» .

وليجتهد أن يعتصم في كل باب من أبواب العلم بأصل مأثور عن النبي ﷺ . وإذا اشتبه عليه مما قد اختلف فيه الناس فليدع بمارواه مسلم في صحيحه عن عائشة ـ رضي اللّه عنها ـ أن رسول اللّه ﷺ كان يقول إذا قام يصلي من الليل: « اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم» (١) فإن اللّه تعالى / قد قال فيما رواه عنه رسوله: «ياعبادي كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم» (٢). ١٠/٦٦٥

وأما وصف«الكتب والمصنفين» ،فقد سمع منا في أثناء المذاكرة ما يسره اللّه سبحانه، وما في الكتب المصنفة المبوبة كتاب أنفع من «صحيح محمد بن إسماعيل البخاري» لكن هو وحده لا يقوم بأصول العلم. ولا يقوم بتمام المقصود للمتبحر في أبواب العلم، إذ لابد من معرفة أحاديث أخر، وكلام أهل الفقه وأهل العلم في الأمور التي يختص بعلمها بعض العلماء . وقد أوعبت الأمة في كل فن من فنون العلم إيعاباً ، فمن نور اللّه قلبه هداه بما يبلغه من ذلك ، ومن أعماه لم تزده كثرة الكتب إلا حيرة وضلالاً ، كما قال النبي ﷺ لأبي لبيد الأنصاري : «أو ليست التوراة والإنجيل عند اليهود والنصارى ؟ فماذا تغني عنهم؟» (٣).

فنسأل اللّه العظيم أن يرزقنا الهدى والسداد، ويلهمنا رشدنا، ويقينا شر أنفسنا، وأن لا يزيغ قلوبنا بعد إذ هدانا، ويهب لنا من لدنه رحمة إنه هو الوهاب، والحمد للّه رب العالمين، وصلواته على أشرف المرسلين.

---

(١) مسلم في صلاة المسافرين (٧٧٠/ ٢٠٠) .

(٢) سبق تخريجه ص ٥٥ .

(٣) الترمذي في العلم (٢٦٥٣) وقال:« حديث حسن غريب» ، والدارمي في المقدمة ١/ ٨٧ . .

١٠/٦٦٦ / وَسُئِل الشَّيخُ الإمَامُ ، العَالمُ العَامل الحبر الكامل ، شيخ الإسلام ومفتي الأنام تقي الدين ابن تيمَية ـ أيده الله وزاده من فضله العظيم ـ عن (الصبر الجميل) و (الصفح الجميل) و(الهجر الجميل) وما أقسام التقوى والصبر الذي عليه الناس؟

فأجاب ـ رحمه الله :

الحمد لله، أما بعد : فإن الله أمر نبيه بالهجر الجميل، والصفح الجميل ، والصبر الجميل ، فالهجر الجميل : هجر بلا أذى ، والصفح الجميل : صفح بلا عتاب ، والصبر الجميل: صبر بلا شكوى قال يعقوب ـ عليه الصلاة والسلام ـ: ﴿**إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ**﴾[يوسف:٨٦] مع قوله: ﴿**فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ**﴾[يوسف:١٨] فالشكوى إلى الله لا تنافي الصبر الجميل، ويروي عن موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ أنه
١٠/٦٦٧ كان يقول: « اللهم لك الحمد، وإليك المشتكى ، وأنت المستعان، وبك / المستغاث وعليك التكلان»[١] ومن دعاء النبي ﷺ :اللّهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس، أنت رب المستضعفين وأنت ربي، اللّهم إلي من تكلني؟ إلى بعيد يتجهمني؟ أم إلى عدو ملكته أمري؟ إن لم يكن بك غضب علي فلا أبالي، غير أن عافيتك هي أوسع لي. أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة، أن ينزل بي سخطك، أو يحل علي غضبك، لك العتبي حتى ترضى»[٢].

وكان عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ يقرأ في صلاة الفجر: ﴿**إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ**﴾ [يوسف:٨٦] ويبكي حتى يسمع نشيجه من آخر الصفوف؛ بخلاف الشكوي إلى المخلوق . قرئ على الإمام أحمد في مرض موته أن طاووساً كره أنين المريض، وقال: إنه شكوى. فما أن حتى مات. وذلك أن المشتكي طالب بلسان الحال ، إما إزالة ما يضره أو حصول ما ينفعه والعبد مأمور أن يسأل ربه دون خلقه، كما قال تعالى: ﴿ **فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ . وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب**﴾[الشرح:٧، ٨]، وقال ﷺ لابن عباس: « إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله» [٣].

ولابد للإنسان من شيئين : طاعته بفعل المأمور ، وترك المحظور، وصبره على ما

(١) ذكره الهيثمي في المجمع ١٠/١٨٦وقال: « رواه الطبراني في الأوسط والصغير، وفيه من لم أعرفهم».
(٢) ذكره الهيثمي في المجمع ٦/٣٨ وقال: «رواه الطبراني وفيه ابن إسحاق وهو مدلس ثقة، وبقية رجاله ثقات».
(٣) الترمذي في القيامة (٢٥١٦) وقال: « حسن صحيح» وأحمد ١/٢٩٣.

يصيبه من القضاء المقدور. فالأول هو التقوى، والثاني هو الصبر. قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن / دُونِكُمْ لا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً﴾ إلى قوله: ﴿وإن تصبروا وتتقوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ ،وقال تعالى: ﴿ بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلافٍ مِّنَ الْمَلائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾[آل عمران: ١١٨-١٢٥]، وقال تعالى: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ من قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾[آل عمران: ١٨٦] وقد قال يوسف : ﴿أَنَا يُوسُفُ وَهَٰذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾[يوسف: ٩٠]. ١٠/٦٦٨

ولهذا كان الشيخ عبد القادر ونحوه من المشائخ المستقيمين يوصون في عامة كلامهم بهذين الأصلين : المسارعة إلى فعل المأمور، والتقاعد عن فعل المحظور، والصبر والرضا بالأمر المقدور، وذلك أن هذا الموضع غلط فيه كثير من العامة؛ بل ومن السالكين، فمنهم من يشهد القدر فقط ويشهد الحقيقة الكونية دون الدينية فيرى أن الله خالق كل شيء وربه، ولا يفرق بين ما يحبه الله ويرضاه، وبين ما يسخطه ويبغضه ، وإن قدره وقضاه ولا يميز بين توحيد الألوهية ، وبين توحيد الربوبية فيشهد الجمع الذي يشترك فيه جميع المخلوقات ـ سعيدها وشقيها ـ مشهد الجمع الذي يشترك فيه المؤمن والكافر، والبر والفاجر والنبي الصادق والمتنبئ الكاذب، وأهل الجنة وأهل النار، وأولياء الله وأعداؤه، والملائكة المقربون والمردة الشياطين.

/ فإن هؤلاء كلهم يشتركون في هذا الجمع وهذه الحقيقة الكونية، وهو أن الله ربهم وخالقهم ومليكهم لا رب لهم غيره. ولا يشهد الفرق الذي فرق الله به بين أوليائه وأعدائه. وبين المؤمنين والكافرين ، والأبرار والفجار، وأهل الجنة والنار وهو توحيد الألوهية، وهو عبادته وحده لا شريك له، وطاعته وطاعة رسوله، وفعل ما يحبه ويرضاه، وهو ما أمر الله به ورسوله أمر إيجاب، أو أمر استحباب، وترك ما نهى الله عنه ورسوله، وموالاة أوليائه، ومعاداة أعدائه، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وجهاد الكفار والمنافقين بالقلب واليد واللسان، فمن لم يشهد هذه الحقيقة الدينية الفارقة بين هؤلاء وهؤلاء ، ويكون مع أهل الحقيقة الدينية وإلا فهو من جنس المشركين ، وهو شر من اليهود والنصارى. ١٠/٦٦٩

فإن المشركين يقرون بالحقيقة الكونية. إذ هم يقرون بأن الله رب كل شيء كما قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [الزمر: ٣٨] ، وقال تعالى: ﴿قُل لِّمَنِ الأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ . سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلا تَذَكَّرُونَ . قُلْ مَن رَّبُّ

السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ . سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ . قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ.سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٤-٨٩]؛ ولهذا قال سبحانه: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم / بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ ١٠/٦٧٠
[يوسف: ١٠٦] قال بعض السلف : تسألهم من خلق السموات والأرض فيقولون اللّه وهم مع هذا يعبدون غيره.

فمن أقر بالقضاء والقدر دون الأمر والنهي الشرعيين فهو أكفر من اليهود والنصارى، فإن أولئك يقرون بالملائكة والرسل الذين جاؤوا بالأمر والنهي الشرعيين لكن آمنوا ببعض وكفروا ببعض. كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلاً . أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا﴾ [النساء: ١٥٠، ١٥١].

وأما الذي يشهد الحقيقة الكونية ، وتوحيد الربوبية الشامل للخليقة ،ويقر أن العباد كلهم تحت القضاء والقدر، ويسلك هذه الحقيقة ، فلا يفرق بين المؤمنين والمتقين الذين أطاعوا أمر اللّه الذي بعث به رسله، وبين من عصى اللّه ورسوله من الكفار والفجار، فهؤلاء أكفر من اليهود والنصارى. لكن من الناس من قد لمحوا الفرق في بعض الأمور دون بعض ، بحيث يفرق بين المؤمن والكافر، ولا يفرق بين البر والفاجر أو يفرق بين بعض الأبرار، وبين بعض الفجار ، ولا يفرق بين آخرين اتباعاً لظنه وما يهواه، فيكون ناقص الإيمان بحسب ما سوى بين الأبرار والفجار، ويكون معه من الإيمان بدين اللّه تعالى الفارق بحسب ما فرق به بين أوليائه وأعدائه.

/ ومن أقر بالأمر والنهي الدينيين دون القضاء والقدر كان من القدرية كالمعتزلة وغيرهم ١٠/٦٧١
الذين هم مجوس هذه الأمة، فهؤلاء يشبهون المجوس، وأولئك يشبهون المشركين الذين هم شر من المجوس.

ومن أقر بهما وجعل الرب متناقضاً، فهو من أتباع إبليس الذي اعترض على الرب ـ سبحانه ـ وخاصمه كما نقل ذلك عنه.

فهذا التقسيم في القول والاعتقاد.

وكذلك هم في الأحوال والأفعال . فالصواب منها حالة المؤمن الذي يتقي اللّه فيفعل المأمور ، ويترك المحظور ، ويصبر على مايصيبه من المقدور ، فهو عند الأمر والنهي والدين والشريعة ويستعين باللّه على ذلك . كما قال تعالى: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [الفاتحة: ٥] .

وإذا أذنب استغفر وتاب: لا يحتج بالقدر على ما يفعله من السيئات، ولا يرى للمخلوق حجة على رب الكائنات، بل يؤمن بالقدر ولا يحتج به، كما في الحديث الصحيح الذي فيه: «سيد الاستغفار أن يقول العبد: اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت، خلقتني وأنا عبدك ، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت ، أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء لك بنعمتك علي وأبوء بذنبي ، فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت» (١)، فيقر بنعمة / الله عليه في الحسنات، ويعلم أنه هو هداه ويسره لليسرى ، ويقر بذنوبه من ١٠/٦٧٢
السيئات ويتوب منها، كما قال بعضهم: أطعتك بفضلك ، والمنة لك وعصيتك بعلمك، والحجة لك، فأسألك بوجوب حجتك علي وانقطاع حجتي، إلا غفرت لي. وفي الحديث الصحيح الإلهي :« ياعبادي إنما هي أعمالكم، أحصيها لكم، ثم أوفيكم إياها؛ فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غيرذلك فلا يلومن إلا نفسه» (٢).

وهذا له تحقيق مبسوط في غير هذا الموضع.

وآخرون قد يشهدون الأمر فقط :فتجدهم يجتهدون في الطاعة حسب الاستطاعة؛ لكن ليس عندهم من مشاهدة القدر ما يوجب لهم حقيقة الاستعانة والتوكل والصبر. وآخرون يشهدون القدر فقط فيكون عندهم من الاستعانة والتوكل والصبر، ماليس عند أولئك ؛ لكنهم لا يلتزمون أمر الله ورسوله واتباع شريعته، وملازمة ماجاء به الكتاب والسنة من الدين فهؤلاء يستعينون الله ولا يعبدونه، والذين من قبلهم يريدون أن يعبدوه ولا يستعينوه؛ والمؤمن يعبده ويستعينه.

والقسم الرابع شر الأقسام ، وهو من لا يعبده ولا يستعينه، فلا هو مع الشريعة الأمرية؛ ولا مع القدر الكوني. وانقسامهم إلى هذه الأقسام هو فيما يكون قبل وقوع المقدور من توكل واستعانة ونحو/ذلك؛ وما يكون بعده من صبر ورضا ونحوذلك،فهم في ١٠/٦٧٣
التقوى وهي طاعة الأمر الديني،والصبر على ما يقدر عليه من القدر الكوني أربعة أقسام.

أحدها: أهل التقوى والصبر، وهم الذين أنعم الله عليهم من أهل السعادة في الدنيا والآخرة.

والثاني: الذين لهم نوع من التقوى بلاصبر، مثل الذين يمتثلون ما عليهم من الصلاة ونحوها ، ويتركون المحرمات ، لكن إذا أصيب أحدهم في بدنه بمرض ونحوه أو في ماله

---

(١) البخارى في الدعوات (٦٣٢٣).

(٢) سبق تخريجه ص ٥٥.

أو في عرضه، أو ابتلى بعدو يخيفه عظم جزعه، وظهر هلعه.

والثالث: قوم لهم نوع من الصبر بلا تقوى ، مثل الفجار الذين يصبرون علي مايصيبهم في مثل أهوائهم،كاللصوص والقطاع الذين يصبرون على الآلام في مثل ما يطلبونه من الغصب وأخذ الحرام،والكتاب وأهل الديوان الذين يصبرون على ذلك في طلب ما يحصل لهم من الأموال بالخيانة وغيرها. وكذلك طلاب الرئاسة والعلو على غيرهم يصبرون من ذلك على أنواع من الأذى التي لا يصبر عليها أكثر الناس ، وكذلك أهل المحبة للصور المحرمة من أهل العشق وغيرهم يصبرون في مثل ما يهوونه من المحرمات على أنواع من الأذى والآلام . وهؤلاء هم الذين يريدون علواً في الأرض / أو فساداً من ١٠/٦٧٤
طلاب الرئاسة والعلو على الخلق،ومن طلاب الأموال بالبغي والعدوان، والاستمتاع بالصور المحرمة نظراً أو مباشرة وغير ذلك يصبرون على أنواع من المكروهات، ولكن ليس لهم تقوى فيما تركوه من المأمور،وفعلوه من المحظور،وكذلك قد يصبر الرجل على ما يصيبه من المصائب:كالمرض والفقر وغير ذلك ،ولا يكون فيه تقوى إذا قدر.

وأما القسم الرابع، فهو شر الأقسام: لا يتقون إذا قدروا، ولا يصبرون إذا ابتلوا؛ بل هم كما قال الله تعالى: ﴿**إِنَّ الإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا . إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا . وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا**﴾[المعارج:١٩-٢١] فهؤلاء تجدهم من أظلم الناس وأجبرهم إذا قدروا ، ومن أذل الناس وأجزعهم إذا قهروا . إن قهرتهم ذلوا لك ونافقوك، وحابوك واسترحموك ودخلوا فيما يدفعون به عن أنفسهم من أنواع الكذب والذل وتعظيم المسؤول ، وإن قهروك كانوا من أظلم الناس وأقساهم قلباً . وأقلهم رحمة وإحساناً وعفواً، كما قد جربه المسلمون في كل من كان عن حقائق الإيمان أبعد: مثل التتار الذين قاتلهم المسلمون ومن يشبههم في كثير من أمورهم. وإن كان متظاهراً بلباس جند المسلمين وعلمائهم وزهادهم وتجارهم وصناعهم، فالاعتبار بالحقائق :« فإن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أموالكم، وإنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم» (١).

/ فمن كان قلبه وعمله من جنس قلوب التتار وأعمالهم كان شبيهاً لهم من هذا الوجه، ١٠/٦٧٥
وكان ما معه من الإسلام أو مايظهره منه بمنزلة ما معهم من الإسلام وما يظهرونه منه، بل يوجد في غير التتار المقاتلين من المظهرين للإسلام من هو أعظم ردة وأولى بالأخلاق الجاهلية، وأبعد عن الأخلاق الإسلامية ، من التتار.

وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه كان يقول في خطبته :«خير الكلام كلام الله، وخير

(١) مسلم في البر والصلة (٢٥٦٤/ ٣٣) ، وابن ماجه في الزهد (٤١٤٣) ، وأحمد ٢/ ٢٨٥، كلهم عن أبي هريرة.

الهدى هدي محمد، وشر الأمور محدثاتها، وكل بدعة ضلالة» [1]، وإذا كان خير الكلام كلام الله ، وخير الهدي هدي محمد ، فكل من كان إلى ذلك أقرب وهو به أشبه كان إلى الكمال أقرب ، وهو به أحق ، ومن كان عن ذلك أبعد وشبهه به أضعف ، كان عن الكمال أبعد ، وبالباطل أحق . والكامل هو من كان لله أطوع ، وعلى ما يصيبه أصبر، فكلما كان أتبع لما يأمر الله به ورسوله وأعظم موافقة لله فيما يحبه ويرضاه ، وصبراً على ماقدره وقضاه ، كان أكمل وأفضل . وكل من نقص عن هذين كان فيه من النقص بحسب ذلك.

وقد ذكر الله ـ تعالى ـ الصبر والتقوى جميعاً في غير موضع من كتابه ،وبين أنه ينتصر العبد على عدوه من الكفار المحاربين المعاندين والمنافقين ، وعلى من ظلمه من المسلمين، ولصاحبه تكون العاقبة، / قال الله تعالى: ﴿ بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا ١٠/٦٧٦
يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾[آل عمران:١٢٥]، وقال الله تعالى: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾[آل عمران:١٨٦]، وقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ . هَا أَنتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ . إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾[آل عمران:١١٨-١٢٠]، وقال إخوة يوسف له: ﴿أَئِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَٰذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٠].

وقد قرن الصبر بالأعمال الصالحة عموماً وخصوصًا فقال تعالى: ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ [يونس:١٠٩].

وفي اتباع ما أوحى إليه التقوى كلها تصديقاً لخبر الله وطاعة لأمره وقال تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ / يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ . ١٠/٦٧٧
وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [هود :١١٤ ، ١١٥] ، وقال تعالى: ﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ

(١) مسلم في الجمعة (٨٦٧/ ٤٣).

وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ﴾ [غافر: ٥٥]، وقال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ﴾ [طه: ١٣٠]، وقال تعالى: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥]، وقال تعالى: ﴿اسْتَعِينُوا(١) بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣] فهذه مواضع قرن فيها الصلاة والصبر.

وقرن بين الرحمة والصبر في مثل قوله تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ﴾ [البلد: ١٧] . وفي الرحمة الإحسان إلى الخلق بالزكاة وغيرها؛ فإن القسمة أيضاً رباعية، إذ من الناس من يصبر ولا يرحم كأهل القوة والقسوة، ومنهم من يرحم ولا يصبر كأهل الضعف واللين، مثل كثير من النساء، ومن يشبههن، ومنهم من لايصبر ولا يرحم كأهل القسوة والهلع. والمحمود هو الذي يصبر ويرحم ، كما قال الفقهاء في المتولي: ينبغي أن يكون قويًا من غير عنف، لينا من غير ضعف فبصبره يقوى ، وبلينه يرحم ، وبالصبر ينصر العبد؛ فإن النصر مع الصبر، وبالرحمة يرحمه اللّه تعالى. كما قال النبي ﷺ : «إنما يرحم اللّه من عباده الرحماء» (٢)، وقال: « من لا يرحم لا يرحم» (٣)، وقال : « لا تنزع الرحمة إلا من شقي » (٤) ، وقال: « الراحمون يرحمهم الرحمن ، وارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء» (٥). واللّه أعلم .انتهى.

---

(١) في المطبوعة :«واستعينوا » ، والصواب ما أثبتناه.

(٢) البخاري في الجنائز (١٢٨٤) ومسلم في الجنائز (٩٢٣/ ١١).

(٣) البخاري في الأدب (٥٩٩٧) ومسلم في الفضائل (٢٣١٨/ ٦٥).

(٤) أبو داود في الأدب (٤٩٤٢) ، والترمذي في البر والصلة (١٩٢٣) وقال:« حديث حسن»، وأحمد ٢/ ٣٠١، كلهم عن أبي هريرة.

(٥) الترمذي في البر والصلة (١٩٢٤) وقال:« حسن صحيح» وأبو داود في الأدب (٤٩٤١).

/ وَسُئِلَ شَيْخُ الإسلام ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ عما ذكر الأستاذ القشيري في (باب الرضا) عن الشيخ أبي سليمان أنه قال: الرضا ألاّ يسأل الله الجنة، ولا يستعيذ من النار، فهل هذا الكلام صحيح؟ ١٠/٦٧٨

فأجاب :

الحمد لله رب العالمين، الكلام على هذا القول من وجهين:

أحدهما : من جهة ثبوته عن الشيخ.

والثاني: من جهة صحته في نفسه وفساده.

أما المقام الأول: فينبغي أن يعلم أن الأستاذ أبا القاسم لم يذكر هذا عن الشيخ أبي سليمان بإسناد، وإنما ذكره مرسلاً عنه، وما يذكره أبو القاسم في رسالته عن النبي ﷺ والصحابة والتابعين والمشائخ وغيرهم، تارة يذكره بإسناد، وتارة يذكره مرسلاً، وكثيراً ما يقول : وقيل كذا ثم الذي يذكره بإسناد تارة يكون إسناده / صحيحاً ، وتارة يكون ضعيفاً، ١٠/٦٧٩ بل موضوعاً . وما يذكره مرسلاً، ومحذوف القائل أولى، وهذا كما يوجد ذلك في مصنفات الفقهاء، فإن فيها من الأحاديث والآثار ما هو صحيح، ومنها ما هو ضعيف ، ومنها ما هو موضوع.

فالموجود في كتب الرقائق والتصوف من الآثار المنقولة، فيها الصحيح ،وفيها الضعيف، وفيها الموضوع. وهذا الأمر متفق عليه بين جميع المسلمين لا يتنازعون أن هذه الكتب فيها هذا وفيها هذا، بل نفس الكتب المصنفة في «التفسير» فيها هذا وهذا، مع أن أهل الحديث أقرب إلى معرفة المنقولات وفي كتبهم هذا وهذا فكيف غيرهم؟!

والمصنفون قد يكونون أئمة في الفقه أو التصوف أو الحديث ، ويروون هذا تارة ؛ لأنهم لم يعلموا أنه كذب ، وهو الغالب على أهل الدين ، فإنهم لا يحتجون بما يعلمون أنه كذب ، وتارة يذكرونه وإن علموا أنه كذب ؛ إذ قصدهم رواية ما روي في ذلك الباب، ورواية الأحاديث المكذوبة مع بيان كونها كذباً جائز . وأما روايتها مع الإمساك عن ذلك رواية عمل فإنه حرام عند العلماء ، كما ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «من حدث عني حديثاً وهو يرى أنه كذب فهو أحد الكاذبين» [1]. وقد فعل كثير من

(١) مسلم في المقدمة (١/٩) باب وجوب الرواية عن الثقات وترك الكذابين.

١٠/٦٨٠ العلماء / متأولين أنهم لم يكذبوا ، وإنما نقلوا ما رواه غيرهم وهذا يسهل إذ رووه لتعريف أنه روى؛ لا لأجل العمل به ولا الاعتماد عليه.

والمقصود هنا أن ما يوجد في الرسالة وأمثالها: من كتب الفقهاء والصوفية وأهل الحديث من المنقولات عن النبي ﷺ وغيره من السلف فيه الصحيح والضعيف والموضوع. فالصحيح: الذي قامت الدلالة على صدقه ،والموضوع الذي قامت الدلالة على كذبه، والضعيف الذي رواه من لم يعلم صدقه، إما لسوء حفظه وإما لاتهامه، ولكن يمكن أن يكون صادقاً فيه؛ فإن الفاسق قد يصدق والغالط قد يحفظ.

وغالب أبواب الرسالة فيها الأقسام الثلاثة. ومن ذلك: باب الرضا،فإنه ذكر عن النبي ﷺ أنه قال: « ذاق طعم الإيمان من رضي بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ نبياً» . وهذا الحديث رواه مسلم في صحيحه، وإن كان الأستاذ لم يذكر أن مسلماً رواه لكنه رواه، بإسناد صحيح (١).

وذكر في أول هذا الباب حديثاً ضعيفاً ـ بل موضوعا ـ وهو حديث جابر الطويل الذي رواه من حديث الفضل بن عيسى الرقاشي عن محمد بن المنكدر عن جابر، فهو وإن كان
١٠/٦٨١ أول حديث ذكره في الباب / فإن أحاديث الفضل بن عيسى من أوهى الأحاديث وأسقطها، ولا نزاع بين الأئمة أنه لا يعتمد عليها ولا يحتج بها؛ فإن الضعف ظاهر عليها وإن كان هو لا يتعمد الكذب ،فإن كثيراً من الفقهاء لا يحتج بحديثهم لسوء الحفظ لا لاعتماد الكذب ، وهذا الرقاشي اتفقوا على ضعفه كما يعرف ذلك أئمة هذا الشأن؛ حتى قال أيوب السختياني :لو ولد أخرس لكان خيراً له ،وقال سفيان بن عيينة :لا شيء ، وقال الإمام أحمد والنسائي : هو ضعيف . وقال يحيى بن معين: رجل سوء. وقال أبو حاتم وأبو زرعة: منكر الحديث.

وكذلك ما ذكره من الآثار؛ فإنه قد ذكر آثاراً حسنة بأسانيد حسنة مثل ما رواه عن الشيخ أبي سليمان الداراني أنه قال:إذا سلا العبد عن الشهوات فهو راض، فإن هذا رواه عن شيخه أبي عبد الرحمن السلمي بإسناده، والشيخ أبو عبد الرحمن كانت له عناية بجمع كلام هؤلاء المشائخ وحكاياتهم، وصنف في الأسماء كتاب «طبقات الصوفية» وكتاب «زهاد السلف» وغير ذلك، وصنف في الأبواب كتاب «مقامات الأولياء» وغير ذلك ومصنفاته تشتمل على الأقسام الثلاثة.

وذكر عن الشيخ أبي عبد الرحمن أنه قال :سمعت النصر آبادي يقول : من أراد أن

(١) مسلم في الإيمان (٣٤/٥٦).

يبلغ محل الرضا فيلزم ماجعل الله رضاه فيه، فإن هذا الكلام في غاية الحسن، فإنه من لزم مايرضى الله من امتثال / أوامره واجتناب نواهيه لا سيما إذا قام بواجبها ومستحبها فإن الله ١٠/٦٨٢ يرضى عنه، كما أن من لزم محبوبات الحق أحبه الله، كما قال في الحديث الصحيح الذي في البخاري: « من عادى لي ولياً فقد بارزني بالمحاربة وما تقرب إلى عبدى بمثل أداء ما افترضت عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته» الحديث[1]. وذلك أن الرضا نوعان:

أحدهما: الرضا بفعل ما أمر به وترك ما نهي عنه. ويتناول ما أباحه الله من غيرتعد إلى المحظور ، كما قال: ﴿ **وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ**﴾[التوبة: ٦٢]، وقال تعالى: ﴿**وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ من فَضْلِه وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ**﴾ [التوبة: ٥٩] وهذا الرضا واجب؛ ولهذا ذم من تركه بقوله: ﴿**وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ . وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ من فَضْلِه وَرَسُولُهُ**﴾[التوبة: ٥٨، ٥٩] .

والنوع الثاني: الرضا بالمصائب ، كالفقر والمرض والذل فهذا الرضا مستحب في أحد قولي العلماء. وليس بواجب ، وقد قيل : إنه واجب، والصحيح أن الواجب هو الصبر. كما قال الحسن: الرضا غريزة ، ولكن الصبر معول المؤمن. وقد روى في حديث ابن عباس / أن النبي ﷺ قال: « إن استطعت أن تعمل بالرضا مع اليقين فافعل، فإن لم تستطع ١٠/٦٨٣ فإن في الصبر على ما تكره خيراً كثيراً».

وأما الرضا بالكفر والفسوق والعصيان: فالذي عليه أئمة الدين أنه لا يرضى بذلك، فإن الله لا يرضاه كما قال: ﴿ **وَلا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ** ﴾ [الزمر: ٧] وقال : ﴿**وَاللَّهُ[2] لا يُحِبُّ الْفَسَادَ**﴾ [البقرة: ٢٠٥]، وقال تعالى: ﴿**فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ** ﴾ [التوبة: ٩٦] ، وقال تعالى: ﴿**فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا**﴾ [النساء: ٩٣]، وقال: ﴿**ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ**﴾ [محمد: ٢٨] ، وقال تعالى: ﴿**وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ**﴾ [التوبة: ٦٨] ،وقال تعالى: ﴿ **لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ** ﴾ [المائدة : ٨٠] ، وقال تعالى: ﴿ **فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ**﴾ [الزخرف : ٥٥] فإذا كان الله ـ سبحانه ـ لا يرضى لهم ما عملوه بل

(١) سبق تخريجه ص ٨.

(٢) في المطبوعة :«إن»، والصواب ما أثبتناه.

يسخطه ذلك، وهو يسخط عليهم، ويغضب عليهم، فكيف يشرع للمؤمن أن يرضى ذلك وألا يسخط ويغضب لما يسخط الله ويغضبه؟!.

وإنما ضل هنا فريقان من الناس:

قوم: من أهل الكلام المنتسبين إلى السنة في مناظرة القدرية ظنوا أن محبة الحق ورضاه وغضبه وسخطه يرجع إلى إرادته، وقد / علموا أنه مريد لجميع الكائنات خلافاً للقدرية. ١٠/٦٨٤
وقالوا: هو أيضا محب لها مريد لها، ثم أخذوا يحرفون الكلم عن مواضعه، فقالوا: لا يحب الفساد، بمعنى لا يريد الفساد: أي لا يريده للمؤمنين، ولا يرضى لعباده الكفر: أي لا يريده لعباده المؤمنين. وهذا غلط عظيم؛ فإن هذا عندهم بمنزلة أن يقال: لا يحب الإيمان ولا يرضى لعباده الإيمان: أي لا يريده للكافرين، ولا يرضاه للكافرين، وقد اتفق أهل الإسلام على أن ما أمر الله به فإنه يكون مستحباً يحبه. ثم قد يكون مع ذلك واجباً، وقد يكون مستحباً ليس بواجب سواء فعل أو لم يفعل. والكلام على هذا مبسوط في غير هذا الموضع.

والفريق الثاني: من غالطي المتصوفة شربوا من هذه العين: فشهدوا أن الله رب الكائنات جميعها، وعلموا أنه قدر على كل شيء وشاءه، وظنوا أنهم لا يكونون راضين حتى يرضوا بكل ما يقدره ويقضيه من الكفر والفسوق والعصيان، حتى قال بعضهم: المحبة نار تحرق من القلب كل ما سوى مراد المحبوب. قالوا: والكون كله مراد المحبوب. وضل هؤلاء ضلالاً عظيماً، حيث لم يفرقوا بين الإرادة الدينية والكونية، والإذن الكوني والديني، والأمر الكوني والديني، والبعث الكوني والديني، والإرسال الكوني والديني. كما بسطناه في غير هذا الموضع.

/ وهؤلاء يؤول الأمر بهم إلى ألا يفرقوا بين المأمور والمحظور وأولياء الله وأعدائه، ١٠/٦٨٥
والأنبياء والمتقين. ويجعلون الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض، ويجعلون المتقين كالفجار، ويجعلون المسلمين كالمجرمين، ويعطلون الأمر والنهي، والوعد والوعيد، والشرائع وربما سموا هذا: حقيقة، ولعمري إنه حقيقة كونية، لكن هذه الحقيقة الكونية قد عرفها عباد الأصنام، كما قال: ﴿**وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ**﴾ [الزمر: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿ **قُل لِّمَنِ الأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ . سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلا تَذَكَّرُونَ** ﴾ الآيات [المؤمنون: ٨٤، ٨٥].

فالمشركون الذين يعبدون الأصنام كانوا مقرين بأن الله خالق كل شيء وربه ومليكه، فمن كان هذا منتهى تحقيقه كان أقرب أن يكون كعباد الأصنام.

والمؤمن إنما فارق الكفر بالإيمان بالله وبرسله ، وبتصديقهم فيما أخبروا ، وطاعتهم فيما أمروا ، واتباع ما يرضاه الله، ويحبه دون ما يقدر ويقضيه من الكفر والفسوق والعصيان ، ولكن يرضى بما أصابه من المصائب ، لا بما فعله من المعائب . فهو من الذنوب يستغفر . وعلى المصائب يصبر ، فهو كما قال تعالى: ﴿فاصبر إنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لذَنْبِكَ﴾[غافر: ٥٥] فيجمع بين طاعة الأمر والصبر على المصائب. كما / قال تعالى: ﴿وإن تَصْبِرُوا وتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾ [آل عمران: ١٢٠] ، وقال تعالى: ﴿وإن تَصْبِرُوا وتَتَّقُوا فإنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾[آل عمران: ١٨٦]، وقال يوسف: ﴿إنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فإنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾[يوسف: ٩٠]. ١٠/٦٨٦

والمقصود هنا : أن ما ذكره القشيري عن النصر آبادي من أحسن الكلام حيث قال: من أراد أن يبلغ محل الرضا فليلزم ما جعل الله رضاه فيه، وكذلك قول الشيخ أبي سليمان: إذا سلا العبد عن الشهوات فهو راض ؛ وذلك أن العبد إنما يمنعه من الرضا والقناعة طلب نفسه لفضول شهواتها، فإذا لم يحصل سخط ، فإذا سلا عن شهوات نفسه رضي بما قسم الله له من الرزق ، وكذلك ما ذكره عن الفضيل بن عياض أنه قال لبشر الحافي: الرضا أفضل من الزهد في الدنيا؛ لأن الراضي لا يتمنى فوق منزلته، كلام حسن. لكن أشك في سماع بشر الحافي من الفضيل.

وكذلك ما ذكره معلقاً قال: قال الشبلي بين يدي الجنيد: لاحول ولا قوة إلا بالله. فقال الجنيد: قولك ذا ضيق صدر ، وضيق الصدر لترك الرضا بالقضاء . فإن هذا من أحسن الكلام . وكان الجنيد ـ رضي الله عنه ـ سيد الطائفة ، ومن أحسنهم تعليماً وتأديباً وتقويمًا ـ وذلك أن هذه الكلمة كلمة استعانة ؛ لا كلمة استرجاع ، وكثير من الناس يقولها عند المصائب بمنزلة الاسترجاع ، ويقولها جزعًا لا صبراً . فالجنيد / أنكر على الشبلي حاله في سبب قوله لها ، إذ كانت حالاً ينافى الرضا ، ولو قالها على الوجه المشروع لم ينكر عليه. ١٠/٦٨٧

وفيما ذكره آثار ضعيفة مثل ما ذكره معلقاً. قال: وقيل: قال موسى:« إلهي ، دلني على عمل إذا عملته رضيت عني. فقال: إنك لا تطيق ذلك ، فخر موسى ساجداً متضرعاً. فأوحى الله إليه: يابن عمران، رضائي في رضاك عني» ، فهذه الحكاية الإسرائيلية فيها نظر؛ فإنه قد يقال: لا يصلح أن يحكي مثلها عن موسى بن عمران. ومعلوم أن هذه الإسرائيليات ليس لها إسناد، ولا يقوم بها حجة في شيء من الدين، إلا إذا كانت منقولة لنا نقلاً صحيحاً، مثل ما ثبت عن نبينا أنه حدثنا به عن بني إسرائيل ،

ولكن منه ما يعلم كذبه مثل هذه؛ فإن موسى من أعظم أولي العزم، وأكابر المسلمين؛ فكيف يقال: إنه لا يطيق أن يعمل ما يرضى الله به عنه؟! والله تعالى راض عن السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان . أفلا يرضى عن موسى بن عمران كليم الرحمن؟! وقال تعالى: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ . جَزَاؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ**﴾[البينة:٧، ٨] ومعلوم أن موسى بن عمران ـ عليه السلام ـ من أفضل الذين آمنوا وعملوا الصالحات.

١٠/٦٨٨ / ثم إن الله خص موسى بمزية فوق الرضا، حيث قال: ﴿**وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي**﴾ [طه:٣٩] . ثم إن قوله له في الخطاب: يابن عمران، مخالف لماذكره الله من خطابه في القرآن حيث قال: يا موسى، وذلك الخطاب فيه نوع غض منه كما يظهر. ومثل ما ذكر أنه قيل: كتب عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ إلى أبي موسى الأشعري أما بعد : فإن الخير كله في الرضا فإن استطعت أن ترضى وإلا فاصبر. فهذا الكلام كلام حسن. وإن لم يعلم إسناده.

وإذا تبين أن فيما ذكره مسنداً ومرسلاً ومعلقًا ما هو صحيح وغيره، فهذه الكلمة لم يذكرها عن أبي سليمان إلا مرسلة. وبمثل ذلك لا تثبت عن أبي سليمان باتفاق الناس؛ فإنه وإن قال بعض الناس: إن المرسل حجة ، فهذا لم يعلم أن المرسل هو مثل الضعيف وغير الضعيف . فأما إذا عرف ذلك فلا يبقى حجة باتفاق العلماء. كمن علم أنه تارة يحفظ الإسناد وتارة يغلط فيه.

والكتب المسندة في أخبار هؤلاء المشائخ وكلامهم مثل كتاب «حلية الأولياء» لأبي نعيم، و«طبقات الصوفية» لأبي عبد الرحمن ،و «صفوة الصفوة» لابن الجوزي. وأمثال ذلك لم يذكروا فيها هذه الكلمة عن الشيخ أبي سليمان. ألا ترى الذي رواه عنه مسنداً
١٠/٦٨٩ حيث قال: قال لأحمد بن أبي الحواري: يا أحمد ، لقد أوتيت من الرضا / نصيباً لو ألقاني في النار لكنت بذلك راضياً . فهذا الكلام مأثور عن أبي سليمان بالإسناد؛ ولهذا أسنده عنه القشيري من طريق شيخه أبي عبد الرحمن ، بخلاف تلك الكلمة فإنها لم تسند عنه. فلا أصل لها عن الشيخ أبي سليمان.

ثم إن القشيري قرن هذه الكلمة الثانية عن أبي سليمان بكلمة أحسن منها فإنه قبل أن يرويها قال: وسئل أبو عثمان الحيري النيسابوري عن قول النبي ﷺ :«أسألك الرضا بعد القضاء »[1] ، فقال: لأن الرضا بعد القضاء هوالرضا . فهذا الذي قاله الشيخ أبوعثمان

(١) النسائي في السهو (١٣٠٥) وأحمد ٥/ ١٩١.

كلام حسن سديد. ثم أسند بعد هذا عن الشيخ أبي سليمان أنه قال: أرجو أن أكون قد عرفت طرفاً من الرضا. لو أنه أدخلني النار لكنت بذلك راضياً.

فتبين بذلك أن ما قاله أبو سليمان ليس هو رضا. وإنما هو عزم على الرضا ، وإنما الرضا ما يكون بعد القضاء، وإن كان هذا عزمًا فالعزم قد يدوم، وقد ينفسخ ، وما أكثر انفساخ العزائم خصوصاً عزائم الصوفية؛ ولهذا قيل لبعضهم: بماذا عرفت ربك ؟ قال : بفسخ العزائم ونقض الهمم. وقد قال تعالى لمن هو أفضل من هؤلاء المشائخ: ﴿**ولَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ من قَبْلِ أن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ**﴾ [آل عمران: ١٤٣] ، وقال تعالى: ﴿ **يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا / تَفْعَلُونَ . كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ . إِنَّ اللَّهَ** ١٠/٦٩٠ **يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ** ﴾[الصف: ٢-٤] وفي الترمذي أن بعض الصحابة قالوا للنبي ﷺ : لو علمنا أي العمل أحب إلى اللّه لعملناه فأنزل اللّه تعالى هذه الآية (١) ﴿ **أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلا أَخَّرْتَنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ** ﴾الآية [النساء: ٧٧] . فهؤلاء الذين كانوا قد عزموا على الجهاد وأحبوه لما ابتلوا به كرهوه وفروا منه، وأين ألم الجهاد من ألم النار؟ وعذاب اللّه الذي لا طاقة لأحد به، ومثل هذا ما يذكرونه عن سمنون المحب أنه كان يقول:

وليس لي في سواك حظ فكيفما شئت فاختبرني

فأخذه العسر من ساعته: أي حصر بوله؛ فكان يدور على المكاتب ويفرق الجوز على الصبيان ويقول: ادعوا لعمكم الكذاب.

وحكى أبو نعيم الأصبهاني عن أبي بكر الواسطي أنه قال سمنون : يارب ، قد رضيت بكل ما تقضيه عليّ ،فاحتبس بوله أربعة عشر يومًا، فكان يتلوى كما تتلوى الحية، يتلوى يميناً وشمالاً، فلما / أطلق بوله، قال: ربي قد تبت إليك . قال أبو نعيم: فهذا ١٠/٦٩١ الرضا الذي ادعى سمنون ظهر غلطه فيه بأدني بلوي ، مع أن سمنونا هذا كان يضرب به المثل، وله في المحبة مقام مشهور، حتى روى عن إبراهيم بن فاتك أنه قال: رأيت سمنوناً يتكلم على الناس في المسجد الحرام، فجاء طائر صغير فلم يزل يدنو منه حتى جلس على يده، ثم لم يزل يضرب بمنقاره الأرض حتى سقط منه دم؛ ومات الطائر .وقال : رأيته يوماً يتكلم في المحبة فاصطفقت قناديل المسجد وكسر بعضها بعضاً.

---

(١) الترمذي في التفسير (٣٣٠٩) وقال: « وقد خولف محمد بن كثير في إسناد هذا الحديث عن الأوزاعي » .

وقد ذكر القشيري في (باب الرضا) عن رويم المقري ـ رفيق سمنون ـ حكاية تناسب هذا حيث قال: قال رويم: إن الراضي لو جعل جهنم عن يمينه ما سأل اللّه أن يحولها عن يساره، فهذا يشبه قول سمنون: فكيف ما شئت فامتحني. وإذا لم يطق الصبر على عسر البول ، أفيطيق أن تكون النار عن يمينه ؟

والفضيل بن عياض كان أعلى طبقة من هؤلاء وابتلى بعسر البول فغلبه الألم حتى قال: بحبي لك ألا فرجت عني؛ ففرج عنه.

ورويم ـ وإن كان من رفقاء الجنيد ـ فليس هو عندهم من هذه الطبقة، بل الصوفية يقولون : إنه رجع إلى الدنيا وترك التصوف؛ حتى روى عن جعفر الخلدي صاحب الجنيد
١٠/٦٩٢ أنه قال: من أراد أن يستكتم سراً / فليفعل . كما فعل رويم . كتم حب الدنيا أربعين سنة فقيل: وكيف يتصور ذلك؟ قال: ولي إسماعيل بن إسحاق القاضي قضاء بغداد وكان بينهما مودة أكيدة، فجذبه إليه، وجعله وكيلاً على بابه فترك لبس التصوف ولبس الخز والقصب والديبقي وأكل الطيبات ، وبنى الدور ، وإذا هو كان يكتم حب الدنيا مالم يجدها ، فلما وجدها أظهر ماكان يكتم من حبها. هذا مع أنه ـ رحمه اللّه ـ كان له من العبادات ما هو معروف وكان على مذهب داود.

وهذه الكلمات التي تصدر عن صاحب حال لم يفكر في لوازم أقواله وعواقبها لا تجعل طريقة ولا تتخذ سبيلاً؛ ولكن قد يستدل بها على ما لصاحبها من الرضا والمحبة، ونحو ذلك، وما معه من التقصير في معرفة حقوق الطريق، وما يقدر عليه من التقوى والصبر وما لا يقدر عليه من التقوى والصبر، والرسل ـ صلوات اللّه عليهم ـ أعلم بطريق سبيل اللّه وأهدى وأنصح، فمن خرج عن سنتهم وسبيلهم كان منقوصاً مخطئًا محرومًا، وإن لم يكن عاصياً أو فاسقاً أو كافراً.

ويشبه هذا الأعرابي الذي دخل عليه النبي ﷺ وهو مريض كالفرخ فقال: «هل كنت تدعو اللّه بشيء، قال: كنت أقول: اللّهم ما كنت معذبني به في الآخرة فاجعله في الدنيا،
١٠/٦٩٣ فقال: سبحان اللّه لا تستطيعه ولا تطيقه ، هلا قلت : ربنا آتنا في / الدنيا حسنة ، وفي الآخرة حسنة ، وقنا عذاب النار» (١) فهذا أيضاً حمله خوفه من عذاب النار ، ومحبته لسلامة عاقبته على أن يطلب تعجيل ذلك في الدنيا ، وكان مخطئا في ذلك غالطاً ، والخطأ والغلط مع حسن القصد وسلامته ، وصلاح الرجل وفضله ودينه وزهده وورعه وكراماته كثير جداً ، فليس من شرط ولي اللّه أن يكون معصومًا من الخطأ والغلط ؛ بل

(١) مسلم في الذكر والدعاء (٢٦٨٨/ ٢٣) والترمذي في الدعوات (٣٤٨٧) وأحمد ٣/ ١٠٧.

ولا من الذنوب، وأفضل أولياء اللّه بعد الرسل أبو بكر الصديق ـ رضي اللّه عنه ـ وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال له لما عبر الرؤيا : « أصبت بعضاً وأخطأت بعضاً »(١).

ويشبه ـ واللّه أعلم ـ أن أبا سليمان لما قال هذه الكلمة ـ :لو ألقاني في النار لكنت بذلك راضياً ـ أن يكون بعض الناس حكاه بما فهمه من المعنى أنه قال: الرضا ألا تسأل اللّه الجنة، ولا تستعيذه من النار. وتلك الكلمة التي قالها أبو سليمان ،مع أنها لا تدل على رضاه بذلك ، ولكن تدل على عزمه بالرضا بذلك، فنحن نعلم أن هذا العزم لا يستمر بل ينفسخ، وإن هذه الكلمة كان تركها أحسن من قولها؛ وأنها مستدركة، كما استدركت دعوى سمنون ورويم وغير ذلك؛ فإن بين هذه الكلمة وتلك فرقاً عظيماً. فإن تلك الكلمة مضمونها: أن من سأل اللّه الجنة، واستعاذ من النار، لا يكون راضياً.

وفرق بين من يقول: أنا إذا فعل كذا كنت راضياً، وبين / من يقول: لا يكون راضياً ١٠/٦٩٤
إلا من لا يطلب خيراً، ولا يهرب من شر؛ وبهذا وغيره يعلم أن الشيخ أبا سليمان كان أجل من أن يقول سئل هذا الكلام، فإن الشيخ أبا سليمان من أجلاء المشائخ، وساداتهم ومن أتبعهم للشريعة حتى إنه قال: إنه ليمر بقلبي النكتة من نكت القوم، فلا أقبلها إلا بشاهدين: الكتاب والسنة. فمن لا يقبل نكت قلبه إلا بشاهدين، يقول هذا سئل الكلام؟! وقال الشيخ أبو سليمان أيضاً: ليس لمن ألهم شيئًا من الخير أن يفعله، حتى يسمع فيه بأثر فإذا سمع فيه بأثر كان نوراً على نور؛ بل صاحبه أحمد بن أبي الحواري كان من أتبع المشائخ للسنة، فكيف أبو سليمان؟!.

وتمام تزكية أبي سليمان من هذا الكلام تظهر بالكلام في المقام الثاني وهو قول القائل كائناً من كان: الرضا ألا تسأل اللّه الجنة، ولا تستعيذه من النار.

ونقدم قبل ذلك مقدمة يتبين بها أصل ما وقع في سئل هذه الكلمات من الاشتباه والاضطراب، وذلك أن قوماً كثيراً من الناس، من المتفقهة والمتصوفة والمتكلمة، وغيرهم، ظنوا أن الجنة التنعم بالمخلوق من أكل وشرب ونكاح ولباس، وسماع أصوات طيبة، وشم روائح طيبة ولم يدخلوا في مسمى الجنة نعيماً غير ذلك. ثم صاروا ضربين:

/ ضرب أنكروا أن يكون المؤمنون يرون ربهم. كما ذهب إلى ذلك الجهمية من المعتزلة ١٠/٦٩٥
وغيرهم.

ومنهم من أقر بالرؤية ، إما الرؤية التي أخبر بها النبي ﷺ كما هو مذهب أهل السنة والجماعة، وإما برؤية فسروها بزيادة كشف أو علم،أو جعلها بحاسة سادسة، ونحو ذلك

(١) مسلم في الرؤيا (٢٢٦٩/ ١٧)، وأبو داود في الأيمان والنذور (٣٢٦٨)، وابن ماجه في الرؤيا (٣٩١٨)، والدارمي في الرؤيا ٢/ ١٢٩، عن ابن عباس وأبي هريرة.

من الأقوال التي ذهب إليها ضرار بن عمرو وطوائف من أهل الكلام المنتسبين إلى نصر أهل السنة في مسألة الرؤية، وإن كان ما يثبتونه من جنس ما تنفيه المعتزلة والضرارية. والنزاع بينهم لفظي ، ونزاعهم مع أهل السنة معنوي؛ ولهذا كان بشر وأمثاله يفسرون الرؤية بنحو من تفسير هؤلاء.

والمقصود هنا أن مثبتة الرؤية منهم من أنكر أن يكون المؤمن ينعم بنفس رؤيته ربه، قالوا: لأنه لا مناسبة بين المحدث والقديم ،كما ذكر ذلك الأستاذ أبو المعالى الجويني في«الرسالة النظامية» ، وكما ذكره أبو الوفاء بن عقيل في بعض كتبه ، ونقلوا عن ابن عقيل أنه سمع رجلاً يقول: أسألك لذة النظر إلى وجهك . فقال: يا هذا ،هب أن له وجهًا ، أله وجه يتلذذ بالنظر إليه؟! وذكر أبو المعالي أن اللّه يخلق لهم نعيماً ببعض المخلوقات مقارناً للرؤية ، فأما النعيم بنفس الرؤية فأنكره ، وجعل هذا من أسرار التوحيد.

١٠/٦٩٦ / وأكثر مثبتي الرؤية يثبتون تنعم المؤمنين برؤية ربهم، وهو مذهب سلف الأمة وأئمتها، ومشائخ الطريق ، كما في الحديث الذي في النسائي وغيره عن النبي ﷺ : «اللهم بعلمك الغيب ، وقدرتك على الخلق، أحيني إذا كانت الحياة خيراً لي، وتوفني إذا كانت الوفاة خيراً لي ، اللّهم إني أسألك خشيتك في الغيب والشهادة، وأسألك كلمة الحق في الغضب والرضا، وأسألك القصد في الفقر والغنى، وأسألك نعيماً لا ينفد، وقرة عين لا تنقطع، وأسألك الرضا بعد القضاء، وبرد العيش بعد الموت، وأسألك لذة النظر إلى وجهك ، وأسألك الشوق إلى لقائك من غير ضراء مضرة، ولا فتنة مضلة، اللّهم زينا بزينة الإيمان ، واجعلنا هداة مهتدين»(١). وفي صحيح مسلم وغيره عن صهيب عن النبي ﷺ قال: «إذا دخل أهل الجنة الجنة نادى مناد، يا أهل الجنة، إن لكم عند اللّه موعداً يريد أن ينجزكموه، فيقولون: ما هو ؟ ألم يبيض وجوهنا؟ ويثقل موازيننا؟ ويدخلنا الجنة ، ويجرنا من النار؟ قال: فيكشف الحجاب؛ فينظرون إليه فما أعطاهم شيئًا أحب إليهم من النظر إليه» (٢).

وكلما كان الشيء أحب كانت اللذة بنيله أعظم، وهذا متفق عليه بين السلف والأئمة ومشائخ الطريق، كما روي عن الحسن البصري أنه قال: لو علم العابدون بأنهم لا يرون ١٠/٦٩٧ ربهم في الآخرة لذابت نفومهم في / الدنيا شوقاً إليه، وكلامهم في ذلك كثير.

---

(١) النسائي في السهو (١٣٠٥، ١٣٠٦) عن عمار بن ياسر، وأحمد ١/ ٤٠٠ عن عبد الله بن مسعود.

(٢) سبق تخريجه ص ٤٠.

ثم هؤلاء الذين وافقوا السلف والأئمة والمشائخ على التنعم بالنظر إلى الله تعالى، تنازعوا في مسألة المحبة التي هي أصل ذلك ؛ فذهب طوائف من. . . [1] والفقهاء إلى أن الله لا يُحَبُّ نَفْسُهُ ، وإنما المحبة محبة طاعته وعبادته ؛ وقالوا : هو أيضاً لا يحب عباده المؤمنين ؛ وإنما محبته إرادته للإحسان إليهم وولايتهم. ودخل في هذا القول من انتسب إلى نصر السنة من أهل الكلام ، حتى وقع فيه طوائف من أصحاب مالك والشافعي وأحمد : كالقاضي أبي بكر والقاضي أبي يعلى وأبي المعالي الجويني وأمثال هؤلاء.

وهذا في الحقيقة شعبة من التجهم والاعتزال ؛ فإن أول من أنكر المحبة في الإسلام الجعد بن درهم، أستاذ الجهم بن صفوان؛ فضحى به خالد بن عبد الله القسري . وقال: أيها الناس ، ضحوا تقبل الله ضحاياكم، فإني مضح بالجعد بن درهم ، فإنه زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلاً، ولم يكلم موسى تكليماً ثم نزل فذبحه.

والذي دل عليه الكتاب والسنة واتفق عليه سلف الأمة وأئمتها ومشائخ الطريق: أن الله يحب ويحب. ولهذا وافقهم على ذلك من تصوف من / أهل الكلام: كأبي القاسم ١٠/٦٩٨
القشيري؛ وأبي حامد الغزالي ، وأمثالهما. ونصر ذلك أبو حامد في (الإحياء) وغيره. وكذلك أبو القاسم ذكر ذلك في (الرسالة) على طريق الصوفية كما في كتاب أبي طالب المسمى بـ (قوت القلوب) وأبو حامد مع كونه تابع في ذلك الصوفية ، استند في ذلك لما وجده من كتب الفلاسفة من إثبات نحو ذلك حيث قالوا: يعشق ويعشق.

وقد بسط الكلام على هذه المسألة العظيمة في القواعد الكبار بما ليس هذا موضعه. وقد قال تعالى: ﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: ٥٤]، وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]، وقال: ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ [التوبة: ٢٤] ،وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: « ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: من كان اللهّ ورسوله أحب إليه مما سواهما، ومن كان يحب المرء لا يحبه إلا لله، ومن كان يكره أن يرجع في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى في النار»[2].

والمقصود هنا أن هؤلاء المتجهمة من المعتزلة ومن وافقهم ـ الذين ينكرون حقيقة المحبة ـ يلزمهم أن ينكروا التلذذ بالنظر إليه؛ ولهذا ليس في الحقيقة عندهم إلا التنعم بالأكل والشرب ، ونحو ذلك . وهذا القول باطل بالكتاب والسنة واتفاق سلف الأمة ومشائخها، فهذا أحد الحزبين الغالطين.

---

(١) بياض في الأصل.

(٢) سبق تخريجه ص ٣٢.

١٠/٦٩٩ والضرب الثاني: طوائف من المتصوفة والمتفقرة والمتبتلة:/ وافقوا هؤلاء على أن الجنة ليست إلا هذه الأمور التي يتنعم بها المخلوق؛ ولكن وافقوا السلف والأئمة على إثبات رؤية اللّه والتنعم بالنظر إليه، وأصابوا في ذلك وجعلوا يطلبون هذا النعيم، وتسمو إليه همتهم، ويخافون فوته، وصار أحدهم يقول: ما عبدتك شوقاً إلى جنتك، أو خوفاً من نارك، ولكن لأنظر إليك وإجلالاً لك، وأمثال هذه الكلمات. مقصودهم بذلك: هو أعلى من الأكل والشرب والتمتع بالمخلوق، لكن غلطوا في إخراج ذلك من الجنة. وقد يغلطون أيضًا في ظنهم أنهم يعبدون اللّه بلا حظ ولا إرادة ، وإن كل ما يطلب منه فهو حظ النفس، وتوهموا أن البشر يعمل بلا إرادة ولا مطلوب ولا محبوب، وهو سوء معرفة بحقيقة الإيمان والدين والآخرة.

وسبب ذلك أن همة أحدهم المتعلقة بمطلوبه ومحبوبه ومعبوده تفنيه عن نفسه، حتى لا يشعر بنفسه وإرادتها، فيظن أنه يفعل لغير مراده، والذي طلب وعلق به همته غاية مراده ومطلوبه ومحبوبه، وهذا كحال كثير من الصالحين والصادقين، وأرباب الأحوال والمقامات يكون لأحدهم وجد صحيح، وذوق سليم، لكن ليس له عبارة تبين كلامه، فيقع في كلامه غلط وسوء أدب، مع صحة مقصوده؛ وإن كان من الناس من يقع منه في مراده واعتقاده.

١٠/٧٠٠ فهؤلاء الذين قالوا مثل هذا الكلام، إذا عنوا به طلب رؤية اللّه / تعالى أصابوا في ذلك، لكن أخطؤوا من جهة أنهم جعلوا ذلك خارجاً عن الجنة، فأسقطوا حرمة اسم الجنة، ولزم من ذلك أمور منكرة؛ نظير ما ذكر عن الشبلي ـ رحمه اللّه ـ أنه سمع قارئاً يقرأ: ﴿**مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الآخِرَةَ**﴾ [آل عمران: ١٥٢] . فصرخ وقال: أين مريد اللّه؟ فيحمد منه كونه أراد اللّه؛ ولكن غلط في ظنه أن الذين أرادوا الآخرة ما أرادوا اللّه؛ وهذه الآية في أصحاب النبي ﷺ الذين كانوا معه بأحد، وهم أفضل الخلق، فإن لم يريدوا اللّه، أفيريد اللّه من هو دونهم. كالشبلي، وأمثاله؟!

ومثل ذلك ما أعرفه عن بعض المشائخ أنه سأل مرة عن قوله تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ**﴾ [التوبة: ١١١] قال: فإذا كانت الأنفس والأموال في ثمن الجنة ، فالرؤية بم تنال ؟ فأجابه مجيب بما يشبه هذا السؤال.

والواجب أن يعلم أن كل ما أعده اللّه للأولياء من نعيم ،بالنظر إليه وما سوى ذلك، هو في الجنة ، كما أن كل ما وعد به أعداءه هو في النار . وقد قال تعالى: ﴿ **فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾ [السجدة: ١٧] ،وفي الحديث

الصحيح عن النبي ﷺ :«يقول اللّه أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر بَلْهُ ما أطلعتهم عليه»[1] وإذا علم أن / جميع ذلك ١٠/٧٠١
داخل في الجنة ، فالناس في الجنة على درجات متفاوتة، كما قال: ﴿**انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً**﴾ [الإسراء:٢١] وكل مطلوب للعبد بعبادة أو دعاء أو غيرذلك من مطالب الآخرة هو في الجنة.

وطلب الجنة والاستعاذة من النار طريق أنبياء اللّه ورسله، وجميع أوليائه السابقين المقربين، وأصحاب اليمين. كما في السنن أن النبي ﷺ سأل بعض أصحابه: « كيف تقول في دعائك؟» قال: أقول : اللهم إني أسألك الجنة،وأعوذ بك من النار؛ أما إني لا أحسن دندنتك، ولا دندنة معاذ . فقال: « حولهما ندندن »[2] فقد أخبر أنه هو ﷺ ومعاذ ـ وهو أفضل الأئمة الراتبين بالمدينة في حياة النبي ﷺ ـ إنما يدندنون حول الجنة، أفيكون قول أحد فوق قول رسول اللّه ﷺ ومعاذ، ومن يصلي خلفهما من المهاجرين والأنصار؟! ولو طلب هذا العبد ما طلب كان في الجنة.

وأهل الجنة نوعان: سابقون مقربون، وأبرار أصحاب يمين . قال تعالى: ﴿**كَلاَّ إِنَّ كِتَابَ الأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ . وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ . كِتَابٌ مَّرْقُومٌ . يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ . إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ . عَلَى الأَرَائِكِ يَنظُرُونَ . تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ . يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ. خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ . وَمِزَاجُهُ مِن تَسْنِيمٍ . عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ**﴾ /١٠/٧٠٢
[المطففين:١٨-٢٨] قال ابن عباس: تمزج لأصحاب اليمين مزجاً ويشربها المقربون صرفاً.

وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال : « إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ، ثم صلوا علي ، فإنه من صلى علي مرة صلى اللّه عليه عشراً ، ثم سلوا اللّه لي الوسيلة ، فإنها درجة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد اللّه ، وأرجو أن أكون أنا ذلك العبد ، فمن سأل اللّه لي الوسيلة،حلت عليه شفاعتي يوم القيامة»[3] ، فقد أخبر أن الوسيلة ـ التي لا تصلح إلا لعبد واحد من عباد اللّه ورجاء أن يكون هو ذلك العبد ـ هي درجة في الجنة،فهل بقى بعد الوسيلة شيء أعلي منها يكون خارجاً عن الجنة يصلح للمخلوقين؟!

وثبت في الصحيح ـ أيضاً ـ في حديث الملائكة الذين يلتمسون الناس في مجالس

---

(١) البخاري في بدء الوحي (٣٢٤٤)، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها (٢٨٢٤/ ٢-٤)، كلاهما عن أبي هريرة، واللفظ لمسلم.

(٢) أحمد ٣/ ٤٧٤ وابن ماجه في إقامة الصلاة (٩٠٩) وفي الزوائد:«إسناده صحيح، ورجاله ثقات».

(٣) البخاري في الأذان (٦١١) ومسلم في الصلاة (٣٨٤/ ١١) واللفظ لمسلم.

الذكر قال: «فيقولون للرب تبارك وتعالى: وجدناهم يسبحونك ويحمدونك ويكبرونك». قال: «فيقول: وما يطلبون؟ قالوا: يطلبون الجنة». قال: «فيقول: وهل رأوها؟» قال: «فيقولون: لا»، قال: «فيقول: فكيف لو رأوها؟!» قال: «فيقولون: لو رأوها لكانوا أشد لها طلباً». قال: «ومم يستعيذون؟!» قالوا: «يستعيذون من النار». قال: «فيقول: وهل رأوها؟!» قال: «فيقولون: لا». قال: «فيقول: / فكيف لو رأوها ؟» قالوا: « لو رأوها لكانوا أشد منها استعاذة». قال: «فيقول: أشهدكم أني أعطيتهم ما يطلبون، وأعذتهم مما يستعيذون» ـ أو كما قال ـ قال: «فيقولون: فيهم فلان الخطاء جاء لحاجة فجلس معهم»، قال: «فيقول: هم القوم لايشقى بهم جليسهم»[1]. فهؤلاء الذين هم من أفضل أولياء اللّه كان مطلوبهم الجنة، ومهربهم من النار. ١٠/٧٠٣

والنبي ﷺ لمّا بايع الأنصار ليلة العقبة، وكان الذين بايعوه من أفضل السابقين الأولين الذين هم أفضل من هؤلاء المشائخ كلهم، قالوا للنبي ﷺ: اشترط لربك ولنفسك ولأصحابك قال: «أشترط لنفسي أن تنصروني مما تنصرون منه أنفسكم وأهليكم، وأشترط لأصحابي أن تواسوهم». قالوا: فإذا فعلنا ذلك فما لنا؟ قال: «لكم الجنة». قالوا: مد يدك فواللّه لا نقيلك، ولا نستقيلك. وقد قالوا له في أثناء البيعة: إن بيننا وبين القوم حبالاً وعهوداً وإنا ناقضوها [2].

فهؤلاء الذين بايعوه من أعظم خلق اللّه محبة للّه ورسوله، وبذلاً لنفوسهم وأموالهم في رضا اللّه ورسوله، على وجه لا يلحقهم فيه أحد من هؤلاء المتأخرين، قد كان غاية ما طلبوه بذلك الجنة، فلو كان هناك مطلوب أعلى من ذلك لطلبوه، ولكن علموا أن في الجنة كل محبوب ومطلوب؛ بل وفي الجنة ما لا تشعر به النفوس لتطلبه، فإن / الطلب والحب والإرادة فرع عن الشعور والإحساس والتصور، فما لا يتصوره الإنسان ولا يحسه ولا يشعر به يمتنع أن يطلبه ويحبه ويريده فالجنة فيها هذا وهذا. كما قال تعالى: ﴿ **لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ** ﴾ [ق: ٣٥]، وقال: ﴿**وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الأَنفُسُ وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ** ﴾ [الزخرف: ٧١] ففيها ما يشتهون، وفيها مزيد على ذلك، وهو مالم يبلغه علمهم ليشتهوه. كماقال ﷺ: «مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر»[3] وهذا باب واسع. ١٠/٧٠٤

فإذا عرفت هذه المقدمة، فقول القائل: الرضا ألا تسأل اللّه الجنة، ولا تستعيذه من

---

(١) البخاري في الدعوات (٦٤٠٨).

(٢) ابن جرير ١١/ ٢٧ ، وابن كثير ٤/ ١٥٥ ط الشعب .

(٣) سبق تخريجه ص ٣٩٣.

النار، إن أراد بذلك ألا تسأل الله ما هو داخل في مسمى الجنة الشرعية، فلاتسأله النظر إليه، ولا غير ذلك مما هو مطلوب جميع الأنبياء والأولياء، وإنك لا تستعيذ به من احتجابه عنك، ولا من تعذيبك في النار . فهذا الكلام مع كونه مخالفاً لجميع الأنبياء والمرسلين، وسائر المؤمنين، فهو متناقض في نفسه، فاسد في صريح العقول ، وذلك أن الرضا الذي لا يسأل ، إنما لا يسأله لرضاه عن الله. ورضاه عنه إنما هو بعد معرفته به، ومحبته له، وإذا لم يبق معه رضا عن الله ولامحبة لله فكأنه قال: يرضى ألا يرضى وهذا جمع بين النقيضين. ولا ريب أنه كلام من لم يتصور مايقول، ولاعقله، يوضح ذلك أن الراضي إنما يحمله على احتمال المكاره والآلام / ما يجده من لذة الرضا وحلاوته، فإذا فقد تلك ١٠/٧٠٥
الحلاوة واللذة امتنع أن يتحمل ألماً ومرارة ، فكيف يتصور أن يكون راضياً، وليس معه من حلاوة الرضا ما يحمل به مرارة المكاره؟ وإنما هذا من جنس كلام السكران والفاني الذي وجد في نفسه حلاوة الرضا، فظن أن هذا يبقى معه على أي حال كان، وهذا غلط عظيم منه: كغلط سمنون كما تقدم.

وإن أراد بذلك ألا يسأل التمتع بالمخلوق ، بل يسأل ماهو أعلى من ذلك ؛ فقد غلط من وجهين:

من جهة أنه لم يجعل ذلك المطلوب من الجنة وهو أعلى نعيم الجنة.

ومن جهة أنه ـ أيضاً ـ أثبت أنه طالب مع كونه راضياً، فإذا كان الرضا لا ينافى هذا الطلب ، فلا ينافي طلباً آخر إذا كان محتاجاً إلى مطلوبه؛ ومعلوم أن تمتعه بالنظر لا يتم إلا بسلامته من النار، وبتنعمه من الجنة بما هو دون النظر ، وما لا يتم المطلوب إلا به فهو مطلوب؛ فيكون طلبه للنظر طلباً للوازمه التي منها النجاة من النار، فيكون رضاه لا ينافي طلب حصول المنفعة ودفع المضرة عنه. ولا طلب حصول الجنة ودفع النار ولا غيرهما مما هو من لوازم النظر، فتبين تناقض قوله.

/ وأيضًا فإذا لم يسأل الله الجنة، ولم يستعذ به من النار، فإما أن يطلب من الله ما هو ١٠/٧٠٦
دون ذلك مما يحتاج إليه من طلب منفعة ودفع مضرة. وإما ألا يطلبه، فإن طلب ما هو دون ذلك واستعاذ مما هو دون ذلك فطلبه للجنة أولى، واستعاذته من النار أولى. وإن كان الرضا ألا يطلب شيئًا قط، ولو كان مضطراً إليه، ولا يستعيذ من شيء قط وإن كان مضراً، فلا يخلو: إما أن يكون ملتفتاً بقلبه إلى الله في أن يفعل به ذلك، وإما أن يكون معرضاً عن ذلك، فإن التفت بقلبه إلى الله فهو طالب مستعيذ بحاله، ولا فرق بين الطلب بالحال والقال، وهو بهما أكمل وأتم فلا يعدل عنه.

وإن كان معرضاً عن جميع ذلك، فمن المعلوم أنه لا يحيا ويبقى إلا بما يقيم حياته، ويدفع مضاره بذلك، والذي به يحيا من المنافع ودفع المضار، إما أن يحبه ويطلبه ويريده من أحد، أو لا يحبه ولا يطلبه ولا يريده. فإن أحبه وطلبه وأراده من غير اللّه كان مشركاً مذموماً، فضلا عن أن يكون محموداً. وإن قال: لا أحبه وأطلبه وأريده لا من اللّه ولا من خلقه. قيل: هذا ممتنع في الحي، فإن الحي ممتنع عليه ألا يحب ما به يبقى، وهذا أمر معلوم بالحس، ومن كان بهذه المثابة امتنع أن يوصف بالرضا، فإن الراضي موصوف بحب وإرادة خاصة، إذ الرضا مستلزم لذلك. فكيف يسلب عنه ذلك كله؟ / فهذا وأمثاله مما يبين فساد هذا الكلام. ١٠/٧٠٧

وأما في سبيل اللّه وطريقه ودينه فمن وجوه:

أحدها أن يقال: الراضي لابد أن يفعل ما يرضاه اللّه، وإلا فكيف يكون راضياً عن اللّه من لا يفعل ما يرضاه اللّه؟ وكيف يسوغ رضا ما يكرهه اللّه ويسخطه ويذمه، وينهي عنه.

وبيان هذا: أن الرضا المحمود إما أن يكون اللّه يحبه ويرضاه، وإما ألا يحبه ويرضاه، فإن لم يكن يحبه ويرضاه لم يكن هذا الرضا مأموراً به، لا أمر إيجاب ولا أمر استحباب؛ فإن من الرضا ما هو كفر، كرضا الكفار بالشرك، وقتل الأنبياء وتكذيبهم، ورضاهم بما يسخطه اللّه ويكرهه. قال تعالى: ﴿**ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ**﴾ [محمد: ٢٨]، فمن اتبع ما أسخط اللّه برضاه وعمله فقد أسخط اللّه، وقال النبي ﷺ: «إن الخطيئة إذا عملت في الأرض كان من غاب عنها ورضيها كمن حضرها، ومن شهدها وسخطها كان كمن غاب عنها وأنكرها»[(١)]، وقال ﷺ: «سيكون بعدي أمراء تعرفون وتنكرون، فمن أنكر فقد برئ، ومن كره فقد سلم ولكن من رضي وتابع هلك»[(٢)]. وقال تعالى: ﴿ **يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ**﴾ [التوبة: ٩٦] فرضانا عن القوم الفاسقين ليس مما يحبه اللّه ويرضاه، وهو لا يرضى عنهم. وقال تعالى: ﴿ **أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ**﴾ [التوبة: ٣٨] فهذا رضا قد ذمه اللّه. وقال ١٠/٧٠٨

---

(١) أبو داود في الملاحم (٤٣٤٥، ٤٣٤٦) عن عدي بن عدي.

(٢) مسلم في الإمارة (١٨٥٤/ ٦٢-٦٤)، وأبو داود في السنة (٤٧٦٠، ٤٧٦١)، والترمذي في الفتن (٢٢٦٥)، وأحمد ٦/ ٢٩٥، كلهم عن أم سلمة.

تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا﴾ [يونس:٧] فهذا أيضًا رضا مذموم، وسوى هذا ،وهذا كثير.

فمن رضى بكفره وكفر غيره وفسقه وفسق غيره ومعاصيه ومعاصي غيره فليس هو متبعاً لرضا الله ولا هو مؤمن بالله. بل هو مسخط لربه، وربه غضبان عليه، لاعن له، ذام له، متوعد له بالعقاب.

وطريق الله التي يأمر بها المشائخ المهتدون: إنما هي الأمر بطاعة الله والنهي عن معصيته. فمن أمر أو استحب أو مدح الرضا الذي يكرهه الله ويذمه وينهى عنه ويعاقب أصحابه فهو عدو لله لا ولى لله وهو يصد عن سبيل الله وطريقه، ليس بسالك لطريقه وسبيله. وإذا كان الرضا الموجود في بني آدم منه ما يحبه الله، ومنه ما يكرهه ويسخطه، ومنه ما هو مباح لا من هذا ولا من هذا ، كسائر أعمال القلوب من الحب والبغض وغير ذلك، كلها تنقسم إلى محبوب لله ومكروه لله مباح.

/ فإذا كان الأمر كذلك فالراضي الذي لا يسأل الله الجنة ولا يستعيذه من النار يقال له: ١٠/٧٠٩
سؤال الله الجنة واستعاذته من النار إما أن تكون واجبة، وإما أن تكون مستحبة، وإما أن تكون مباحة ، وإما أن تكون مكروهة، ولا يقول مسلم: إنها محرمة ولامكروهة، وليست أيضًا مباحة مستوية الطرفين . ولو قيل : إنها كذلك ففعل المباح المستوى الطرفين لا ينافي الرضا؛ إذ ليس من شرط الراضي ألا يأكل ولا يشرب ولا يلبس ولا يفعل أمثال هذه الأمور، فإذا كان ما يفعله من هذه الأمور لا ينافي رضاه، أينافي رضاه دعاء وسؤال هو مباح؟! وإذا كان السؤال والدعاء كذلك واجبا أو مستحبا فمعلوم أن الله يرضى بفعل الواجبات والمستحبات، فكيف يكون الراضي الذي من أولياء الله لا يفعل ما يرضاه ويحبه؛ بل يفعل ما يسخطه ويكرهه وهذه صفة أعداء الله لا أولياء الله.

والقشيري قد ذكره في أوائل باب الرضا فقال: اعلم أن الواجب على العبد أن يرضى بقضاء الله الذي أمر بالرضا به ، إذ ليس كل ماهو بقضائه يجوز للعبد أو يجب على العبد الرضا به. كالمعاصي وفنون محن المسلمين . وهذا الذي قاله ، قاله قبله وبعده ومعه غير واحد من العلماء : كالقاضي أبي بكر ، والقاضي أبي يعلى وأمثالهما ، لما احتج عليهم القدرية بأن الرضا بقضاء الله مأمور به ، فلو كانت المعاصي / بقضاء الله لكنا ١٠/٧١٠
مأمورين بالرضا بها ، والرضا بما نهى الله عنه لا يجوز فأجابهم أهل السنة عن ذلك بثلاثة أجوبة:

أحدها ـ وهو جواب هؤلاء وجماهير الأئمة ـ: أن هذا العموم ليس بصحيح، فلسنا مأمورين أن نرضى بكل ما قضى وقدر، ولم يجئ في الكتاب والسنة أمر بذلك، ولكن علينا أن نرضي بما أمرنا أن نرضى به، كطاعة اللّه ورسوله. وهذا هو الذي ذكره أبو القاسم.

والجواب الثاني: أنهم قالوا: إنا نرضى بالقضاء الذي هو صفة اللّه أو فعله لا بالمقضي الذي هو مفعوله. وفي هذا الجواب ضعف قد بيناه في غير هذا الموضع.

الثالث: أنهم قالوا: هذه المعاصي لها وجهان: وجه إلى العبد من حيث هي فعله وصنعه وكسبه، ووجه إلى الرب من حيث هو خلقها وقضاها وقدرها، فيرضى من الوجه الذي يضاف به إلى اللّه، ولا يرضى من الوجه الذي يضاف به إلى العبد، إذ كونها شراً وقبيحة ومحرماً وسبباً للعذاب والذم ونحو ذلك إنما هو من جهة كونها مضافة إلى العبد. وهذا مقام فيه من كشف الحقائق والأسرار ما قد ذكرنا منه ما قد ذكرناه في غيرهذا الموضع، ولا يحتمله هذا المكان. فإن / هذا متعلق بمسائل الصفات والقدر، وهي من ١٠/٧١١ أعظم مطالب الدين وأشرف علوم الأولين والآخرين وأدقها على عقول أكثر العالمين.

والمقصود هنا أن مشائخ الصوفية والعلماء وغيرهم قد بينوا أن من الرضا ما يكون جائزاً، ومنه مالا يكون جائزاً فضلا عن كونه مستحباً أو من صفات المقربين، وإن أبا القاسم ذكر ذلك في «الرسالة» أيضًا.

فإن قيل: هذا الذي ذكرتموه أمر بين واضح، فمن أين غلط من قال: الرضا ألا تسأل اللّه الجنة ولا تستعيذه من النار؟ وغلط من يستحسن مثل هذا الكلام كائنا من كان؟.

قيل: غلطوا في ذلك لأنهم رأوا أن الراضي بأمر لا يطلب غير ذلك الأمر، فالعبد إذا كان في حال من الأحوال فمن رضاه ألا يطلب غير تلك الحال، ثم إنهم رأوا أن أقصى المطالب الجنة، وأقصى المكاره النار. فقالوا: ينبغي ألايطلب شيئًا ولو أنه الجنة ولا يكره ما يناله، ولو أنه النار، وهذا وجه غلطهم، ودخل عليهم الضلال من وجهين:

أحدهما: ظنهم أن الرضا بكل ما يكون أمر يحبه اللّه ويرضاه / وأن هذا من أعظم ١٠/٧١٢ طرق أولياء اللّه، فجعلوا الرضا بكل حادث وكائن أو بكل حال يكون فيها للعبد طريقاً إلى اللّه، فضلوا ضلالاً مبيناً والطريق إلى اللّه إنما هي أن ترضيه بأن تفعل مايحبه ويرضاه ليس أن ترضى بكل ما يحدث ويكون، فإنه هو لم يأمرك بذلك، ولا رضيه لك ولا أحبه؛ بل هو ـ سبحانه ـ يكره ويسخط ويبغض على أعيان أفعال موجودة لا

يحصيها إلا هو، وولاية اللّه موافقته بأن تحب ما يحب وتبغض ما يبغض ، وتكره ما يكره، وتسخط ما يسخط، وتوالي من يوالي ، وتعادي من يعادي ،فإذا كنت تحب وترضى ما يكرهه ويسخطه كنت عدوه لا وليّه،وكان كل ذم نال من رضى ما أسخط اللّه قد نالك.

فتدبر هذا؛ فإنه ينبه على أصل عظيم ضل فيه من طوائف النساك والصوفية والعباد والعامة من لا يحصيهم إلا اللّه.

الوجه الثاني: أنهم لا يفرقون بين الدعاء الذي أمروا به أمر إيجاب، وأمر استحباب، وبين الدعاء الذي نهوا عنه، أو لم يؤمروا به ولم ينهوا عنه، فإن دعاء العبد لربه ومسألته إياه ثلاثة أنواع:

نوع أمر العبد به إما أمر إيجاب وإما أمر استحباب: مثل / قوله: ﴿**اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ**﴾[الفاتحة:٦]، ومثل دعائه في آخر الصلاة كالدعاء الذي كان النبي ﷺ يأمر به أصحابه فقال: « إذا قعد أحدكم في الصلاة فليستعذ باللّه من أربع : من عذاب جهنم ، وعذاب القبر، وفتنة المحيا والممات، وفتنة المسيح الدجال»(١). فهذا دعاء أمرهم النبي ﷺ أن يدعوا به في آخر صلاتهم. وقد اتفقت الأمة على أنه مشروع يحبه اللّه ورسوله ويرضاه، وتنازعوا في وجوبه. فأوجبه طاووس وطائفة ، وهو قول في مذهب أحمد رضي اللّه عنه، والأكثرون قالوا : هذا مستحب، والأدعية التي كان النبي ﷺ يدعو بها: لا تخرج عن أن تكون واجبة، أو مستحبة ، وكل واحد من الواجب والمستحب يحبه اللّه ويرضاه، ومن فعله ـ رضي اللّه عنه وأرضاه ـ فهل يكون من الرضا ترك ما يحبه ويرضاه؟! ٧١٣/ ١٠

ونوع من الدعاء ينهي عنه: كالاعتداء مثل أن يسأل الرجل مالا يصلح من خصائص الأنبياء، وليس هو بنبي ، وربما هو من خصائص الرب سبحانه وتعالى . مثل أن يسأل لنفسه الوسيلة التي لا تصلح إلا لعبد من عباده، أو يسأل اللّه تعالى أن يجعله بكل شيء عليماً ، أو على كل شيء قدير ، وأن يرفع عنه كل حجاب يمنعه من مطالعة الغيوب. وأمثال ذلك ، أو مثل من يدعوه ظاناً أنه محتاج إلى عباده ؛ وأنهم يبلغون ضره ونفعه فيطلب منه ذلك الفعل ، ويذكر أنه إذا لم يفعله / حصل له من الخلق ضير. وهذا ونحوه جهل باللّه واعتداء في الدعاء. وإن وقع في ذلك طائفة من الشيوخ. ومثل أن يقولوا:اللهم اغفر لي إن شئت،فيظن أن الله قد يفعل الشيء مكرها ، وقد يفعل مختاراً، كالملوك، فيقول: اغفر لي إن شئت، وقد نهي النبي ﷺ عن ذلك وقال :«لا يقل أحدكم: ٧١٤/ ١٠

(١) مسلم في المساجد (٥٨٨/ ١٢٨)، وأبو داود في الصلاة (٩٨٣)، وابن ماجه في إقامة الصلاة (٩٠٩)، وأحمد ٢/ ٢٣٧، كلهم عن أبي هريرة.

اللهم اغفر لي إن شئت، اللهم ارحمني إن شئت ، ولكن ليعزم المسألة؛ فإن الله لا مكره له»[1]، ومثل أن يقصد السجع في الدعاء ويتشهق ويتشدق، وأمثال ذلك فهذه الأدعية ونحوها منهي عنها .

ومن الدعاء ما هو مباح كطلب الفضول التي لامعصية فيها .

والمقصود أن الرضا الذي هو من طريق الله لا يتضمن ترك واجب ولا ترك مستحب، فالدعاء الذي هو واجب أو مستحب لا يكون تركه من الرضا، كما أن ترك سائر الواجبات لا يكون من الرضا المشروع ، ولا فعل المحرمات من المشروع . فقد تبين غلط هؤلاء من جهة ظنهم أن الرضا مشروع بكل مقدور ،ومن جهة أنهم لم يميزوا بين الدعاء المشروع إيجابا ،واستحبابا ،والدعاء غير المشروع.

وقد علم بالاضطرار من دين الإسلام أن طلب الجنة من الله، والاستعاذة به من
النار، هو من أعظم الأدعية المشروعة لجميع المرسلين / والنبيين والصديقين والشهداء ١٠/٧١٥
والصالحين ، وأن ذلك لا يخرج عن كونه واجبًا أو مستحبا، وطريق أولياء الله التي يسلكونها لا تخرج عن فعل واجبات ومستحبات؛ إذ ما سوي ذلك محرم أو مكروه أو مباح لا منفعة فيه في الدين.

ثم إنه لما أوقع هؤلاء في هذا الغلط أنهم وجدوا كثيراً من الناس لا يسألون الله جلب المنافع ، ودفع المضار ، حتى طلب الجنة، والاستعاذة من النار ، من جهة كون ذلك عبادة وطاعة وخيراً ، بل من جهة كون النفس تطلب ذلك ،فرأوا أن من الطريق ترك ما تختاره النفس وتريده ، وألا يكون لأحدهم إرادة أصلا ، بل يكون مطلوبه الجريان تحت القدر ـ كائناً من كان ـ وهذا هو الذي أدخل كثيراً منهم في الرهبانية ، والخروج عن الشرعية ، حتى تركوا من الأكل والشرب واللباس والنكاح ما يحتاجون إليه، وما لا تتم مصلحة دينهم إلا به ؛ فإنهم رأوا العامة تعد هذه الأمور بحكم الطبع والهوى والعادة ، ومعلوم أن الأفعال التي على هذا الوجه لا تكون عبادة ولا طاعة ولا قربة ، فرأي أولئك الطريق إلي الله ترك هذه العبادات ، والأفعال الطبعيات ، فلازموا من الجوع والسهر والخلوة والصمت وغير ذلك مما فيه ترك الحظوظ واحتمال المشاق ، ما أوقعهم في ترك واجبات ومستحبات ، وفعل مكروهات ومحرمات.

/ وكلا الأمرين غير محمود، ولا مأمور به، ولا طريق إلى الله: طريق المفرطين الذين ١٠/٧١٦

(١) البخاري في الدعوات (٦٣٣٩) ومسلم في الذكر والدعاء (٢٦٧٩/ ٩).

فعلوا هذه الأفعال المحتاج إليها على غير وجه العبادة، والتقرب إلى اللّه، وطريق المعتدين الذين تركوا هذه الأفعال؛ بل المشروع أن تفعل بنية التقرب إلى اللّه، وأن يشكر اللّه. قال اللّه تعالى: ﴿كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾ [المؤمنون:٥١]، وقال تعالى: ﴿كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ﴾ [البقرة:١٧٢]، فأمر بالأكل والشرب ، فمن أكل ولم يشكر كان مذموماً، ومن لم يأكل ولم يشكر كان مذموماً، وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: « إن اللّه ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها ، ويشرب الشربة فيحمده عليها»(١)، وقال النبي ﷺ لسعد: «إنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه اللّه، إلا ازددت بها درجة ورفعة، حتى اللقمة تضعها في فيِّ امرأتك»(٢) ،وفي الصحيح أيضاً أنه قال: « نفقة المؤمن على أهله يحتسبها صدقة» (٣). فكذلك الأدعية هنا من الناس من يسأل اللّه جلب المنفعة له ودفع المضرة عنه طبعاً وعادة لا شرعاً وعبادة ، فليس من المشروع أن أدع الدعاء مطلقاً لتقصيرهذا وتفريطه ؛ بل أفعله أنا شرعاً وعبادة.

ثم اعلم أن الذي يفعله شرعاً وعبادة إنما يسعى في مصلحة نفسه وطلب حظوظه المحمودة فهو يطلب مصلحة دنياه وآخرته؛ بخلاف / الذي يفعله طبعاً فإنه إنما يطلب ١٠/٧١٧
مصلحة دنياه فقط، كما قال تعالى: ﴿ فَمِنَ النَّاسِ(٤) مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ . وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ . أُوْلَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [البقرة: ٢٠٠-٢٠٢] وحينئذ فطالب الجنة والمستعيذ من النار إنما يطلب حسنة الآخرة فهو محمود.

ومما يبين الأمر في ذلك أن يرد قول هؤلاء :بأن العبد لا يفعل مأموراً ولا يترك محظوراً . فلا يصلي ولا يصوم ولا يتصدق، ولا يحج ولا يجاهد ولا يفعل شيئًا من القربات، فإن ذلك إنما فائدته حصول الثواب ودفع العقاب. فإذا كان هو لا يطلب حصول الثواب الذي هو الجنة، ولا دفع العقاب الذي هو النار، فلا يفعل مأموراً ، ولا يترك محظوراً ، ويقول: أنا راض بكل ما يفعله بي وإن كفرت وفسقت وعصيت؛ بل يقول: أنا أكفر وأفسق وأعصى حتى يعاقبني وأرضى بعقابه فأنال درجة الرضا بقضائه، وهذا قول من هو من أجهل الخلق وأحمقهم وأضلهم وأكفرهم.

---

(١) مسلم في الذكر والدعاء (٨٩/٢٧٣٤)، عن أنس بن مالك .

(٢) البخاري في الوصايا (٢٧٤٢) ومسلم في الوصية (١٦٢٨/ ٥).

(٣) البخاري في الإيمان (٥٥) ومسلم في الزكاة (٤٨/١٠٠٢).

(٤) في المطبوعة : «فمنهم»، والصواب ما أثبتناه.

أما جهله وحمقه؛ فلأن الرضى بذلك ممتنع متعذر؛ لأن ذلك يستلزم الجمع بين النقيضين.

١٠/٧١٨ / وأما كفره ؛فلأنه مستلزم لتعطيل دين اللّه الذي بعث به رسله وأنزل به كتبه.

ولا ريب أن ملاحظة القضاء والقدر ،أوقعت كثيراً من أهل الإرادة من المتصوفة في أن تركوا من المأمور وفعلوا من المحظور ما صاروا به إما ناقصين محرومين ،وإما عاصين فاسقين ،وإما كافرين، وقد رأيت من ذلك ألوانا. ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠].

وهؤلاء المعتزلة ونحوهم من القدرية طرفا نقيض ـ هؤلاء يلاحظون القدر ويعرضون عن الأمر. وأولئك يلاحظون الأمر ويعرضون عن القدر ـ والطائفتان تظن أن ملاحظة الأمر والقدر متعذر. كما أن طائفة تجعل ذلك مخالفاً للحكمة والعدل. وهذه الأصناف الثلاثة هي : القدرية المجوسية، والقدرية المشركية ؛ والقدرية الإبليسية؛ وقد بسطنا الكلام عليهم في غير هذا الموضع.

وأصل ما يبتلى به السالكون أهل الإرادة والعامة في هذا الزمان هي القدرية المشركية، فيشهدون القدر ويعرضون عن الأمر ، كما قال فيهم بعض العلماء: أنت عند الطاعة قدري، وعند المعصية جبري ، أي مذهب وافق هواك تمذهبت به . وإنما المشروع العكس،وهو أن يكون عند الطاعة يستعين اللّه عليها قبل الفعل ، ويشكره عليها بعد
١٠/٧١٩ الفعل / ويجتهد ألا يعصى فإذا أذنب وعصى بادر إلى التوبة والاستغفار، كما في حديث سيد الاستغفار :«أبوء لك بنعمتك علي ،وأبوء بذنبي»[1] ،وكما في الحديث الصحيح الإلهي: «ياعبادي ، إنماهي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها، فمن وجد خيراً فليحمد اللّه، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه»[2].

ومن هذا الباب دخل قوم من أهل الإرادة في ترك الدعاء ،وآخرون جعلوا التوكل والمحبة من مقامات العامة، وأمثال هذه الأغاليط التي تكلمنا عليها في غير هذا الموضع، وبينا الفرق بين الصواب والخطأ في ذلك ؛ ولهذا يوجد في كلام هؤلاء المشايخ الوصية باتباع العلم والشريعة، حتى قال سهل بن عبد اللّه التستري : كل وجد لا يشهد له الكتاب والسنة فهو باطل . وقال الجنيد بن محمد: علمنا مقيد بالكتاب والسنة؛ فمن لم يقرأ القرآن ويكتب الحديث لا يصح أن يتكلم في علمنا ،واللّه أعلم.

---

(١) سبق تخريجه ص ٣٧٧.

(٢) سبق تخريجه ص ٥٥.

/ ما تقول السادة العلماء فيمن عزم على فعل محرم، كالزنا والسرقة ، وشرب الخمر عزماً جازماً فعجز عن فعله: إما بموت، أو غيره . هل يأثم بمجرد العزم أم لا؟ وإن قلتم: يأثم ، فما جواب من يحتج على عدم الإثم بقوله:«إذا هم عبدي بسيئة ولم يعملها لم تكتب عليه» [1]وبقوله:« إن اللّه تجاوز لأمتي عما حدثت به أنفسها ،مالم تعمل أو تتكلم»[2] واحتج به من وجهين: ١٠/٧٢٠

أحدهما: أنه أخبر بالعفو عن حديث النفس، والعزم داخل في العموم والعزم والهم واحد . قاله ابن سيده.

الثاني: أنه جعل التجاوز ممتدا إلى أن يوجد كلام أوعمل، وما قبل ذلك داخل في حد التجاوز ، ويزعم ألا دلالة في قول النبي ﷺ : « إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار»[3] ؛ لأن الموجب لدخول المقتول في النار مواجهته أخيه، لأنه عمل لا مجرد قصد، وألا دلالة في قوله ﷺ في الذي قال : « لو أن لي مالا لفعلت وفعلت ، إنهما في الإثم سواء وفي الأجر سواء» [4] ؛ لأنه تكلم، / والنبي ﷺ قال : « ما لم تعمل به أو تتكلم» وهذا قد تكلم، وقد وقع في هذه المسألة كلام كثير. واحتيج إلى بيانها مطولاً مكشوفاً مستوفاً. ١٠/٧٢١

فأجاب شيخ الإسلام ابن تيمية ـ قدس اللّه روحه ونور ضريحه :

الحمد للّه، هذه المسألة ونحوها تحتاج قبل الكلام في حكمها إلى حسن التصور لها، فإن اضطراب الناس في هذه المسائل وقع عامته من أمرين:

أحدهما: عدم تحقيق أحوال القلوب وصفاتها، التي هي مورد الكلام.

والثاني: عدم إعطاء الأدلة الشرعية حقها، ولهذا كثر اضطراب كثير من الناس في هذا الباب، حتى يجد الناظر في كلامهم أنهم يدعون إجماعات متناقضة في الظاهر.

فينبغي أن يعلم أن كل واحد من صفات الحي التي هي العلم والقدرة والإرادة ونحوها له من المراتب ما بين أوله وآخره مالا يضبطه العباد : كالشك ، ثم الظن ، ثم العلم ، ثم اليقين ،ومراتبه؛ وكذلك الهم والإرادة والعزم وغير ذلك؛ ولهذا كان الصواب عند جماهير أهل السنة ـ وهو / ظاهر مذهب أحمد ، وهو أصح الروايتين عنه ، وقول ١٠/٧٢٢

(١) مسلم في الإيمان (١٢٨/ ٢٠٣) وأحمد ١/ ٢٧٧.

(٢) البخاري في العتق (٢٥٢٨) ومسلم في الإيمان (١٢٧/ ٢٠١).

(٣) البخاري في الإيمان (٣١) ومسلم في الفتن (٢٨٨٨/ ١٥).

(٤) الترمذي في الزهد (٢٣٢٥) وقال:« حسن صحيح» وابن ماجه في الزهد (٤٢٢٨).

أكثر أصحابه ـ أن العلم والعقل ونحوهما يقبل الزيادة والنقصان، بل وكذلك الصفات التي تقوم بغير الحي : كالألوان والطعوم والأرواح . فنقول أولاً :الإرادة الجازمة هي التي يجب وقوع الفعل معها، إذا كانت القدرة حاصلة فإنه متى وجدت الإرادة الجازمة مع القدرة التامة وجب وجود الفعل ، لكمال وجود المقتضى السالم عن المعارض المقاوم، ومتي وجدت الإرادة والقدرة التامة ولم يقع الفعل لم تكن الإرادة جازمة، وهو إرادات الخلق لما يقدرون عليه من الأفعال، ولم يفعلوه، وإن كانت هذه الإرادات متفاوتة في القوة والضعف تفاوتًا كثيراً ؛ لكن حيث لم يقع الفعل المراد مع وجود القدرة التامة فليست الإرادة جازمة جزماً تاماً.

وهذه المسألة إنما كثر فيها النزاع؛ لأنهم قدروا إرادة جازمة للفعل لا يقترن بها شيء من الفعل، وهذا لا يكون . وإنما يكون ذلك في العزم على أن يفعل، فقد يعزم على الفعل في المستقبل من لا يفعل منه شيئا في الحال، والعزم على أن يفعل في المستقبل لا يكفي في وجود الفعل، بل لابد عند وجوده من حدوث تمام الإرادة المستلزمة للفعل، وهذه هي الإرادة الجازمة.

والإرادة الجازمة إذا فعل معها الإنسان ما يقدر عليه كان في الشرع بمنزلة الفاعل التام: له ثواب الفاعل التام، وعقاب الفاعل التام / الذي فعل جميع الفعل المراد ،حتى يثاب ويعاقب على ما هو خارج عن محل قدرته، مثل المشتركين والمتعاونين على أفعال البر، ومنها ما يتولد عن فعل الإنسان كالداعي إلى هدى أو إلى ضلالة، والسّان سنّة حسنة، وسنة سيئة، كما ثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: « من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه، من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الوزر مثل أوزار من تبعه، من غير أن ينقص أوزارهم شيء»(١)،وثبت عنه في الصحيحين أنه قال:« من سن سنة حسنة كان له أجرها، وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة، من غير أن ينقص من أجورهم شيء»(٢). ١٠/٧٢٣

فالداعي إلى الهدى وإلى الضلالة ، هو طالب مريد كامل الطلب والإرادة لما دعا إليه، لكن قدرته بالدعاء والأمر، وقدرة الفاعل بالاتباع والقبول؛ ولهذا قرن الله تعالى في كتابه بين الأفعال المباشرة والمتولدة فقال : ﴿ **ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلا نَصَبٌ وَلا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلاً إِلاَّ كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ . وَلا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً وَلا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلاَّ كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾ [التوبة: ١٢٠، ١٢١].

(١) مسلم في العلم (٢٦٧٤/ ١٦) ولم نجده في البخاري.

(٢) مسلم في العلم (١٧ ـ ١٠/ ١٥) ولم نجده في البخاري.

فذكر في الآية الأولى ما يحدث عن أفعالهم بغير قدرتهم المنفردة،/ وهو ما يصيبهم ١٠/٧٢٤
من العطش والجوع والتعب ، وما يحصل للكفار بهم من الغيظ ، وما ينالونه من العدو. وقال: ﴿كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ﴾، فأخبر أن هذه الأمور التي تحدث وتتولد من فعلهم وفعل آخر منفصل عنهم يكتب لهم بها عمل صالح، وذكر في الآية الثانية نفس أعمالهم المباشرة التي باشروها بأنفسهم: وهي الإنفاق ، وقطع المسافة، فلهذا قال فيها: ﴿إِلاَّ كُتِبَ لَهُم﴾ فإن هذه نفسها عمل صالح، وإرادتهم في الموضعين جازمة علي مطلوبهم الذي هو أن يكون الدين كله للّه، وأن تكون كلمة اللّه هي العليا، فما حدث مع هذه الإرادة الجازمة من الأمور التي تعين فيها قدرتهم بعض الإعانة هي لهم عمل صالح.

وكذلك الداعي إلى الهدى والضلالة، لما كانت إرادته جازمة كاملة في هدي الأتباع وضلالهم، وأتى من الإعانة على ذلك بما يقدر عليه، كان بمنزلة العامل الكامل ، فله من الجزاء مثل جزاء كل من اتبعه: للهادي مثل أجور المهتدين، وللمضل مثل أوزار الضالين وكذلك السان سنة حسنة وسنة سيئة؛ فإن السنة هي ما رسم للتحري ،فإن السان كامل الإرادة لكل ما يفعل من ذلك، وفعله بحسب قدرته .

ومن هذا :قوله في الحديث المتفق عليه عن ابن مسعود عن النبي ﷺ أنه قال:« لا تقتل نفس ظلماً إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها؛ لأنه أول من سن القتل»[1]، فالكفل / النصيب مثل نصيب القاتل. كما فسره الحديث الآخر، وهو كما استباح جنس ١٠/٧٢٥
قتل المعصوم، لم يكن مانع يمنعه من قتل نفس معصومة ، فصار شريكاً في قتل كل نفس، ومنه قوله تعالى: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ٣٢].

ويشبه هذا أنه من كذب رسولاً معيناً كان كتكذيب جنس الرسل، كما قيل فيه: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٥] ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٢٣] ونحو ذلك.

ومن هذا الباب قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُم بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُم مِّن شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ . وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [العنكبوت :١٢، ١٣] فأخبر أن أئمة

(١) البخاري في الأنبياء (٣٣٣٥)، وفي الديات (٦٨٦٧)، وفي الاعتصام (٧٣٢١)، ومسلم في القسامة (١٦٧٧/ ٢١)، والترمذي في العلم (٢٦٧٣) وقال: «حسن صحيح» ، والنسائي في التفسير (١٦٢)، وابن ماجه في الديات (٢٦١٦)، كلهم عن عبد الله بن مسعود.

الضلال لا يحملون من خطايا الأتباع شيئًا، وأخبر أنهم يحملون أثقالهم، وهي أوزار الأتباع، من غير أن ينقص من أوزار الأتباع شيء ؛ لأن إرادتهم كانت جازمة بذلك، وفعلوا مقدورهم، فصار لهم جزاء كل عامل؛ لأن الجزاء على العمل يستحق مع الإرادة الجازمة، وفعل المقدور منه.

١٠/٧٢٦ وهو كما ثبت في الصحيحين من حديث ابن عباس عن أبي سفيان:/ أن النبي ﷺ كتب إلى هرقل: « فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين» (١)، فأخبر أن هرقل لما كان إمامهم المتبوع في دينهم أن عليه إثم الأريسيين، وهم الأتباع، وإن كان قد قيل : أن أصل هذه الكلمة من الفلاحين والأكرة ، كلفظ الطاء بالتركي، فإن هذه الكلمة تقلب إلى ما هو أعم من ذلك، ومعلوم أنه إذا تولى عن اتباع الرسول كان عليه مثل آثامهم من غير أن ينقص من آثامهم شيء كما دل عليه سائر نصوص الكتاب والسنة.

ومن هذا قوله تعالى: ﴿ **إِلَهُكُمْ** (٢)**إِلَهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ . لا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ . وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ . لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ**﴾ [النحل: ٢٢-٢٥].

فقوله: ﴿**وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم**﴾ هي الأوزار الحاصلة لضلال الأتباع ، وهي حاصلة من جهة الآمر، ومن جهة المأمور الممتثل، فالقدرتان مشتركتان في حصول ذلك الضلال؛ فلهذا كان علي هذا بعضه، وعلى هذا بعضه،إلا أن كل بعض من هذين البعضين ١٠/٧٢٧ هو مثل وزر عامل كامل، كما دلت عليه سائر النصوص، مثل قوله:/ « من دعا إلى الضلالة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة»(٣).

ومن هذا الباب قوله تعالى : ﴿ **قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰ إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لأُولاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِن لاَّ تَعْلَمُونَ** ﴾ [الأعراف: ٣٨].

فأخبر ـ سبحانه ـ أن الأتباع دعوا على أئمة الضلال بتضعيف العذاب، كما أخبر عنهم بذلك في قوله تعالى: ﴿**وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلاَ . رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا**﴾ [الأحزاب: ٦٧، ٦٨]. وأخبر ـ سبحانه ـ أن لكل من

---

(١) البخاري في الجهاد (٢٩٣٦)، ومسلم في الجهاد والسير (١٧٧٣/ ٧٤).

(٢) في المطبوعة :« وإلهكم»، والصواب ما أثبتناه.

(٣) سبق تخريجه ص ٤٠٤.

المتبعين والأتباع تضعيفاً من العذاب. ولكن لا يعلم الأتباع التضعيف.

ولهذا وقع عظيم المدح والثناء لأئمة الهدى، وعظيم الذم واللعنة لأئمة الضلال، حتى روى في أثر ـ لا يحضرني إسناده ـ: «أنه ما من عذاب في النار إلا يبدأ فيه بإبليس ثم يصعد بعد ذلك إلى غيره، وما من نعيم في الجنة إلا يبدأ فيه بالنبي ﷺ ثم ينتقل إلى غيره» فإنه هو الإمام المطلق في الهدى لأول بني آدم وآخرهم. كما قال: « أنا سيد ولد آدم ولا فخر، آدم ومن دونه تحت لوائي يوم القيامة / ولا فخر» (١)، وهو شفيع الأولين والآخرين ١٠/٧٢٨
في الحساب بينهم ؛ وهو أول من يستفتح باب الجنة ، وذلك أن جميع الخلائق أخذ الله عليهم ميثاق الإيمان به كما أخذ على كل نبي أن يؤمن بمن قبله من الأنبياء ؛ ويصدق بمن بعده ، قال تعالى : ﴿ **وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ**﴾ الآية [آل عمران: ٨١]. فافتتح الكلام باللام الموطئة للقسم التي يؤتي بها إذا اشتمل الكلام على قسم وشرط ؛ وأدخل اللام على ما الشرطية ليبين العموم ، ويكون المعنى : مهما آتيكم من كتاب وحكمة فعليكم إذا جاءكم ذلك النبي المصدق الإيمان به ونصره. كما قال ابن عباس : ما بعث الله نبيا إلا أخذ عليه الميثاق لئن بعث محمد وهو حي ليؤمنن به ولينصرنه.

والله ـ تعالى ـ قد نوه بذكره وأعلنه في الملأ الأعلى ، ما بين خلق جسد آدم ونفخ الروح فيه، كما في حديث ميسرة الفجر قال: ،قلت: يا رسول الله! متى كنت نبياً؟ وفي رواية ـ متى كتبت نبياً ؟ فقال : «وآدم بين الروح والجسد» رواه أحمد (٢). وكذلك في حديث العرباض بن سارية الذي رواه أحمد وهو حديث حسن عن النبي ﷺ أنه قال: «إني عند الله لخاتم النبيين، وإن آدم لمنجدل في طينته» الحديث(٣).

/ فكتب الله وقدر في ذلك الوقت، وفي تلك الحال أمر إمام الذرية كما كتب وقدر ١٠/٧٢٩
حال المولود من ذرية آدم بين خلق جسده ونفخ الروح فيه، كما ثبت ذلك في الصحيحين من حديث ابن مسعود (٤) .

فمن آمن به من الأولين والآخرين أثيب على ذلك، وإن كان ثواب من آمن به وأطاعه في الشرائع المفصلة أعظم من ثواب من لم يأت إلا بالإيمان المجمل ، على أنه

---

(١) أحمد ١/ ٢٨١، ٢٩٥ والترمذي في تفسير القرآن (٣١٤٨) وقال: « حسن صحيح» وابن ماجه في الزهد (٤٣٠٨) .

(٢) أحمد ٥/ ٥٩ وصحح الشيخ الزين إسناده (٢٠٤٧٤) .

(٣) أحمد ٤/ ١٢٧، ١٢٨ وقال الهيثمي في المجمع ٨/ ٢٢٦: « رجاله رجال الصحيح ، غير سعيد بن سويد وقد وثقه ابن حبان » .

(٤) البخاري في بدء الخلق (٣٢٠٨) ومسلم في القدر (٢٦٤٣/ ١) .

إمام مطلق لجميع الذرية، وإن له نصيبا من إيمان كل مؤمن من الأولين والآخرين، كما أن كل ضلال وغواية في الجن والإنس لإبليس منه نصيب، فهذا يحقق الأثر المروي ويؤيد ما في نسخة شعيب بن أبي حمزة عن الزهري عن النبي ﷺ مرسلاً ـ إما من مراسيل الزهري، وإما من مراسيل من فوقه من التابعين ـ قال: «بعثت داعياً وليس إلى من الهداية شيء، وبعث إبليس مزينا ومغويا وليس إليه من الضلالة شيء» (١).

ومما يدخل في هذا الباب من بعض الوجوه: قوله في الحديث الذي في السنن: «وزنت بالأمة فرجحت ، ثم وزن أبو بكر بالأمة فرجح، ثم وزن عمر بالأمة فرجح، ثم رفع الميزان» (٢).

فأما كون النبي ﷺ راجحًا بالأمة فظاهر ؛ لأن له مثل أجر جميع الأمة مضافا إلى أجره. وأما أبو بكر وعمر؛ فلأن لهما / معاونة مع الإرادة الجازمة في إيمان الأمة كلها، ١٠/٧٣٠
وأبو بكر كان في ذلك سابقاً لعمر وأقوى إرادة منه، فإنهما هما اللذان كانا يعاونان النبي ﷺ على إيمان الأمة في دقيق الأمور وجليلها؛ في محياه وبعد وفاته.

ولهذا سأل أبو سفيان يوم أحد : أفي القوم محمد؟ أفي القوم ابن أبي قحافة؟ أفي القوم ابن الخطاب؟ فقال النبي: « لا تجيبوه». فقال: أما هؤلاء فقد كفيتموهم. فلم يملك عمر نفسه أن قال: كذبت ياعدو اللّه! إن الذي ذكرت لأحياء وقد بقى لك ما يسوؤك رواه البخاري ومسلم من حديث البراء بن عازب(٣) ، فأبو سفيان ـ رأس الكفر حينئذ ـ لم يسأل إلا عن هؤلاء الثلاثة؛ لأنهم قادة المؤمنين. كما ثبت في الصحيحين أن علي بن أبي طالب لما وضعت جنازة عمر قال: واللّه ما على وجه الأرض أحد أحب أن ألقي اللّه بعمله من هذا المسجي، واللّه إني لأرجو أن يحشرك اللّه مع صاحبيك، فإني كثيراً ما كنت أسمع النبي ﷺ يقول: « دخلت أنا وأبو بكر وعمر، وخرجت أنا وأبو بكر وعمر، وذهبت أنا وأبو بكر وعمر»(٤).

وأمثال هذه النصوص كثيرة، تبين سبب استحقاقهما أن كان لهما مثل أعمال جميع الأمة، لوجود الإرادة الجازمة مع التمكن من القدرة / على ذلك كله، بخلاف من أعان ١٠/٧٣١
على بعض ذلك دون بعض، ووجدت منه إرادة في بعض ذلك دون بعض.

---

(١) السيوطي في الجامع الصغير(٣١٥٣) ورمز له بالضعف.

(٢) أحمد ٢/ ٧٦ والترمذي بنحوه في الرؤيا (٢٢٨٧) وأبو داود في السنة (٤٦٣٤) بنحوه أيضًا.

(٣) البخاري في الجهاد (٣٠٣٩) ، والنسائي في التفسير (٩٩)، وأحمد ٤/ ٢٩٣، ٢٩٤، ولم يعزه صاحب التحفة لمسلم ٢/ ٤٦ .

(٤) البخاري في فضائل الصحابة (٣٦٨٥)، ومسلم في فضائل الصحابة (٢٣٨٩/ ١٤)، كلاهما عن ابن عباس.

وأيضاً فالمريد إرادة جازمة مع فعل المقدور هو بمنزلة العامل الكامل، وإن لم يكن إماما وداعيا ، كما قال سبحانه: ﴿ **لا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلاًّ وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا . دَرَجَاتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا** ﴾ [النساء: ٩٥، ٩٦].

فالله ـ تعالى ـ نفى المساواة بين المجاهد والقاعد الذي ليس بعاجز، ولم ينف المساواة بين المجاهد وبين القاعد العاجز، بل يقال: دليل الخطاب يقتضى مساواته إياه. ولفظ الآية صريح. استثنى أولو الضرر من نفي المساواة ، فالاستثناء هنا هو من النفي، وذلك يقتضي أن أولى الضرر قد يساوون القاعدين، وإن لم يساووهم في الجميع، ويوافقه ما ثبت عن النبي ﷺ أنه قال في غزوة تبوك: «إن بالمدينة رجالا ما سرتم مسيرا ولا قطعتم واديا إلا كانوا معكم». قالوا: وهم بالمدينة . قال : «وهم بالمدينة حبسهم العذر»(١)، فأخبر أن القاعد بالمدينة الذي لم يحبسه إلا العذر هو مثل من معهم في هذه الغزوة. ومعلوم أن الذي معه في الغزوة يثاب كل واحد منهم ثواب غاز على قدر نيته،/ فكذلك القاعدون الذين لم يحبسهم إلا العذر. ٧٣٢/ ١٠

ومن هذا الباب: ما ثبت في الصحيحين عن أبي موسي عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا مرض العبد أو سافر؛ كتب له ما كان يعمل وهو صحيح مقيم»(٢)، فإنه إذا كان يعمل في الصحة والإقامة عملا ثم لم يتركه إلا لمرض أو سفر؛ ثبت أنه إنما ترك لوجود العجز والمشقة، لا لضعف النية وفتورها، فكان له من الإرادة الجازمة التي لم يتخلف عنها الفعل إلا لضعف القدرة، ما للعامل والمسافر وإن كان قادراً مع مشقة كذلك بعض المرض، إلا أن القدرة الشرعية هي التي يحصل بها الفعل من غير مضرة راجحة ، كما في قوله تعالى: ﴿**وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً**﴾ [آل عمران: ٩٧]، وقوله: ﴿**فَمَن**(٣) **لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا** ﴾ [المجادلة: ٤]، ونحو ذلك ليس المعتبر في الشرع القدرة التي يمكن وجود الفعل بها على أي وجه كان، بل لابد أن تكون المكنة خالية عن مضرة راجحة ، بل أو مكافية.

---

(١) البخاري في الجهاد (٢٨٣٩) وابن ماجة في الجهاد (٢٧٦٤) وأحمد ٣/ ١٠٣، ١٦٠.

(٢) البخاري في الجهاد (٢٩٩٦) ولم أجده عند مسلم.

(٣) في المطبوعة :« ومن» ، والصواب ما أثبتناه.

ومن هذا الباب ما ثبت عنه ﷺ أنه قال: « من جهز غازياً فقد غزا، ومن خلفه في أهله بخير فقد غزا» (١)، وقوله: « من فطر صائماً فله مثل أجره من غير أن ينقص من أجره شيء » (٢)، فإن الغزو يحتاج إلى جهاد بالنفس، وجهاد بالمال، فإذا بذل هذا بدنه، وهذا ماله مع وجود الإرادة الجازمة في كل منهما؛ كان كل منهما مجاهداً / بإرادته الجازمة ومبلغ قدرته، وكذلك لابد للغازي من خليفة في الأهل، فإذا خلفه في أهله بخير فهو أيضاً غاز، وكذلك الصيام لابد فيه من إمساك ، ولا بد فيه من العشاء الذي به يتم الصوم، وإلا فالصائم الذي لا يستطيع العشاء لا يتمكن من الصوم. ١٠/٧٣٣

وكذلك قوله في الحديث الصحيح: « إذا أنفقت المرأة من مال زوجها غير مفسدة، كان لها أجرها بما أنفقت، ولزوجها مثل ذلك، لا ينقص بعضهم من أجور بعض شيئًا»(٣) وكذلك قوله في حديث أبي موسى: « الخازن الأمين الذي يعطي ما أمر به كاملا موفرا طيبة به نفسه أحد المتصدقين» أخرجاه (٤). وذلك أن إعطاء الخازن الأمين الذي يعطي ما أمر به موفراً طيبة به نفسه لا يكون إلا مع الإرادة الجازمة الموافقة لإرادة الآمر، وقد فعل مقدوره وهو الامتثال، فكان أحد المتصدقين.

ومن هذا الباب حديث أبي كبشة الأنماري الذي رواه أحمد وابن ماجه عن النبي ﷺ قال: «إنما الدنيا لأربعة: رجل آتاه الله علما ومالا فهو يعمل فيه بطاعة الله»، فقال رجل: لو أن لي مثل فلان لعملت بعمله، فقال النبي ﷺ: « فهما في الأجر سواء»، وقد رواه الترمذي مطولا، وقال: حديث حسن صحيح (٥)،فهذا التساوي مع «الأجر والوزر» هو في حكاية حال من قال ذلك ، / وكان صادقاً فيه، وعلم الله منه إرادة جازمة لا يتخلف عنها الفعل إلا لفوات القدرة؛ فلهذا استويا في الثواب والعقاب. ١٠/٧٣٤

وليس هذه الحال تحصل لكل من قال: «لو أن لي ما لفلان لفعلت مثل ما يفعل» إلا إذا كانت إرادته جازمة يجب وجود الفعل معها إذا كانت القدرة حاصلة، وإلا فكثير من

---

(١) البخاري في الجهاد (٢٨٤٣) ومسلم في الإمارة (١٨٩٥/ ١٣٦).

(٢) الترمذي في الصوم (٨٠٧) وقال: « حديث حسن صحيح»، وابن ماجه في الصيام (١٧٤٦)، والدارمي في الصوم ٢/ ٧، وأحمد ٤/ ١١٤- ١١٦، كلهم عن زيد بن خالد الجهني.

(٣) البخاري في الزكاة (١٤٣٧)، ومسلم في الزكاة (١٠٢٤/ ٨٠) ، وأبو داود في الزكاة (١٦٨٥)، وابن ماجه في التجارات (٢٢٩٤)، وأحمد ٦/ ٤٤ ، كلهم عن عائشة.

(٤) البخاري في الزكاة (١٤٣٨)، ومسلم في الزكاة (١٠٢٣/ ٧٩)، وأبو داود في الزكاة (١٦٨٤).

(٥) أحمد ٤/ ٢٣١ والترمذي في الزهد (٢٣٢٥) وابن ماجه في الزهد (٤٢٢٨).

الناس يقول ذلك عن عزم، لو اقترنت به القدرة لانفسخت عزيمته، كعامة الخلق يعاهدون وينقضون، وليس كل من عزم على شيء عزمًا جازمًا قبل القدرة عليه وعدم الصوارف عن الفعل تبقى تلك الإرادة عند القدرة المقارنة للصوارف ، كما قال تعالى: ﴿**وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ**﴾ [آل عمران: ١٤٣]، وكما قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ**﴾ [الصف: ٢]، وكما قال : ﴿**وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ . فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَّهُم مُّعْرِضُونَ**﴾ [التوبة: ٧٥، ٧٦].

وحديث أبي كبشة في النيات مثل حديث البطاقة في الكلمات. وهو الحديث الذي رواه الترمذي وغيره عن عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ :أن رجلاً من أمة النبي ﷺ ينشر الله له يوم القيامة تسعة وتسعين سجلا كل سجل منها مدى البصر، ويقال له: هل تنكر من هذا شيئًا؟ هل ظلمتك؟ فيقول:/ لا يارب . فيقال له: لا ظلم عليك اليوم، ١٠/٧٣٥
فيؤتي ببطاقة فيها التوحيد فتوضع في كفة والسجلات في كفة، فطاشت السجلات وثقلت البطاقة» (١). فهذا لما اقترن بهذه الكلمة من الصدق والإخلاص والصفاء وحسن النية، إذ الكلمات والعبادات وإن اشتركت في الصورة الظاهرة، فإنها تتفاوت بحسب أحوال القلوب تفاوتا عظيما.

ومثل هذا الحديث الذي في حديث المرأة البغي التي سقت كلباً فغفر الله لها (٢)، فهذا لما حصل في قلبها من حسن النية والرحمة إذ ذاك،ومثله قوله ﷺ: «إن العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله ما يظن أن تبلغ ما بلغت؛ يكتب الله له بها رضوانه إلى يوم القيامة، وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله ما يظن أن تبلغ ما بلغت ؛ يكتب الله له بها سخطه إلى يوم القيامة» (٣).

فَصْل

وبهذا تبين أن الأحاديث التي بها التفريق بين الهام والعامل وأمثالها ، إنما هي فيما دون الإرادة الجازمة التي لابد أن يقترن بها الفعل ، كما في الصحيحين عن أبي رجاء العطاردي عن ابن عباس عن النبي ﷺ ،فيما يروي عن ربه تبارك وتعالى أنه قال:/ «إن ١٠/٧٣٦
الله كتب الحسنات والسيئات، ثم بين ذلك، فمن هم بحسنة فلم يعملها، كتبها الله عنده

---

(١) الترمذي في الإيمان(٢٦٣٩) وقال:«حسن غريب» وابن ماجه في الزهد (٤٣٠٠) وأحمد ٢/ ٢١٣.
(٢) مسلم في السلام (٢٢٤٥/ ١٥٤، ١٥٥) وأحمد ٢/ ٥٠٧.
(٣) البخاري في الرقاق (٦٤٧٨) بنحوه ، وأحمد ٢/ ٣٣٤.

حسنة كاملة، فإن هم بها وعملها؛ كتبها الله عنده عشر حسنات، ومن هم بسيئة ولم يعملها؛ كتبها له الله حسنة كاملة ، فإن هم بها وعملها؛ كتبها الله له عنده سيئة واحدة» وفي الصحيحين نحوه من حديث أبي هريرة (١).

فهذا التقسيم هو في رجل يمكنه الفعل؛ ولهذا قال : «فعملها»، «فلم يعملها» ومن أمكنه الفعل فلم يفعل؛ لم تكن إرادته جازمة، فإن الإرادة الجازمة مع القدرة مستلزمة للفعل، كما تقدم أن ذلك كاف في وجود الفعل ، وموجب له، إذ لو توقف على شيء آخر؛ لم تكن الإرادة الجازمة مع القدرة تامة كافية في وجود الفعل،ومن المعلوم المحسوس أن الأمر بخلاف ذلك، ولا ريب أن «الهم» و «العزم» و «الإرادة » ونحو ذلك قد يكون جازماً لا يتخلف عنه الفعل إلا للعجز، وقد لا يكون هذا على هذا الوجه من الجزم.

فهذا القسم الثاني يفرق فيه بين المريد والفاعل، بل يفرق بين إرادة وإرادة ، إذ الإرادة هي عمل القلب الذي هو ملك الجسد، كما قال أبو هريرة :القلب ملك، والأعضاء جنوده، فإذا طاب الملك؛ طابت جنوده، وإذا خبث الملك؛ خبثت جنوده. وتحقيق ذلك ما في الصحيحين من حديث النعمان بن بشير عن النبي ﷺ:/ «إن في الجسد مضغة إذا صلحت؛ صلح لها سائر الجسد، وإذا فسدت فسد لها سائر الجسد ألا وهي القلب» (٢). ١٠/٧٣٧
فإذا هم بحسنة فلم يعملها كان قد أتى بحسنة، وهي الهم بالحسنة فتكتب له حسنة كاملة، فإن ذلك طاعة وخير، وكذلك هو في عرف الناس كما قيل:

لأشكرنك معروفاً هممت به إن اهتمامك بالمعروف معروف

ولا ألومك إن لم يمضه قدر فالشيء بالقدر المحتوم مصروف

فإن عملها كتبها الله له عشر حسنات ،لما مضى من رحمته أن من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها، إلى سبعمائة ضعف، كما قال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ﴾ [البقرة: ٢٦١]، وكما قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح لمن جاء بناقة :« لك بها يوم القيامة سبعمائة ناقة مخطومة مزمومة»(٣) إلى أضعاف كثيرة. وقد روى عن أبي هريرة مرفوعاً:«أنه يعطى به ألف ألف حسنة» (٤).

وأما الهام بالسيئة الذي لم يعملها وهو قادر عليها، فإن الله لا يكتبها عليه كما أخبر

---

(١) البخاري في الرقاق (٦٤٩١) ومسلم في الإيمان (١٢٩/ ٢٠٥).

(٢) البخاري في الإيمان (٥٢) ومسلم في المساقاة (١٥٩٩/ ١٠٧).

(٣) مسلم في الإمارة (١٨٩٢/ ١٣٢)، والنسائي في الجهاد (٣١٨٧)، والدارمي في الجهاد ٢/ ٢٠٣، ٢٠٤، وأحمد ٤/ ١٢١، كلهم عن أبي مسعود الأنصاري.

(٤) أحمد ٢/ ٥٢١ ، وقال الهيثمى فى المجمع ١٠/ ١٤٨: « أحد إسنادى أحمد جيد ».

به في الحديث الصحيح، وسواء سمى همه إرادة أو عزماً أو لم يسم، متى كان قادراً على الفعل وهم به وعزم عليه ولم يفعله مع القدرة فليست إرادته جازمة، وهذا موافق لقوله في الحديث الصحيح / ـ حديث أبي هريرة ـ عن النبي ﷺ: «إن اللّه تجاوز لأمتي ما ١٠/٧٣٨ حدثت به أنفسها ما لم تكلم به أو تعمل به» (١). فإن ما هم به العبد من الأمور التي يقدر عليها من الكلام والعمل ولم يتكلم بها ولم يعملها لم تكن إرادته لها جازمة ، فتلك مما لم يكتبها اللّه عليه، كما شهد به قوله: «من هم بسيئة فلم يعملها»(٢)، ومن حكى الإجماع كابن عبد البر وغيره في هذه المسألة على هذا الحديث فهو صحيح بهذا الاعتبار.

وهذا الهام بالسيئة، فإما أن يتركها لخشية اللّه وخوفه، أو يتركها لغير ذلك ، فإن تركها لخشية اللّه؛ كتبها اللّه له عنده حسنة كاملة كما قد صرح به في الحديث، وكما قد جاء في الحديث الآخر: «اكتبوها له حسنة ،فإنما تركها من أجلي»، أو قال: «من جرائي»(٣)، وأما إن تركها لغير ذلك لم تكتب عليه سيئة، كما جاء في الحديث الآخر: «فإن لم يعملها لم تكتب عليه» . وبهذا تتفق معاني الأحاديث.

وإن عملها لم تكتب عليه إلا سيئة واحدة، فإن اللّه تعالى لا يضعف السيئات بغير عمل صاحبها، ولا يجزي الإنسان في الآخرة إلا بما عملت نفسه، ولا تمتلئ جهنم إلا من أتباع إبليس من الجنة والناس، كما قال تعالى: ﴿**لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ**﴾ [ص: ٨٥]؛ ولهذا ثبت في الصحيحين من حديث أبي هريرة وأنس: « إن الجنة يبقى فيها فضل فينشئ اللّه لها أقواماً في الآخرة ، وأما النار فإنه ينزوي بعضها إلى / بعض حتى ١٠/٧٣٩ يضع عليها قدمه فتمتلئ بمن دخلها من أتباع إبليس» (٤).

ولهذا كان الصحيح المنصوص عن أئمة العدل كأحمد وغيره الوقف في أولاد المشركين، وأنه لا يجزم لمعين منهم بجنة ولا نار، بل يقال فيهم كما قال النبي ﷺ في الحديثين الصحيحين: حديث أبي هريرة وابن عباس :«الله أعلم بما كانوا عاملين » (٥). فحديث أبي هريرة في الصحيحين ، وحديث ابن عباس في البخاري، وفي حديث سمرة ابن جندب الذي رواه البخاري: « إن منهم من يدخل الجنة» (٦)، وثبت: « أن منهم من

---

(١) مسلم في الإيمان (١٢٧/ ٢٠١) .

(٢) سبق تخريجه ص ٤١٢.

(٣) مسلم في الإيمان (١٢٩/ ٢٠٥) وأحمد ٢/ ٣١٧.

(٤) البخاري في التوحيد (٧٣٨٤)، ومسلم في الجنة (٢٨٤٦/ ٣٥، ٣٦)، (٢٨٤٨/ ٣٧-٣٩).

(٥) البخاري في الجنائز (١٣٨٣، ١٣٨٤) ومسلم في القدر (٢٦٥٩/ ٢٦، ٢٧) ،(٢٦٦٠/ ٢٨).

(٦) البخاري في الجنائز (١٣٨٦).

يدخل النار» كما في صحيح مسلم في قصة الغلام الذي قتله الخضر [1]، وهذا يحقق ما روى من وجوه: أنهم يمتحنون يوم القيامة فيظهر على علم الله فيهم، فيجزيهم حينئذ على الطاعة والمعصية، وهذا هو الذي حكاه الأشعري عن أهل السنة والحديث واختاره.

وأما أئمة الضلال ـ الذين عليهم أوزار من أضلوه ـ ونحوهم، فقد بينا أنهم إنما عوقبوا لوجود الإرادة الجازمة مع التمكن من الفعل؛ بقوله في حديث أبي كبشة: « فهما في الوزر سواء» [2]، وقوله: « من دعا إلى ضلالة كان عليه من الوزر مثل أوزار من تبعه»[3]، فإذا وجدت الإرادة الجازمة، والتمكن من الفعل صاروا بمنزلة الفاعل التام، والهام بالسيئة التي
٧٤٠/ ١٠ لم يعملها مع قدرته عليها لم توجد منه إرادة جازمة، وفاعل / السيئة التي تمضي لا يجزي بها إلا سيئة واحدة، كما شهد به النص، وبهذا يظهر قول الأئمة حيث قال الإمام أحمد: « الهم» همان: هم خطرات، وهم إصرار. فهم الخطرات يكون من القادر، فإنه لو كان همه إصراراً جازماً وهو قادر لوقع الفعل.

ومن هذا الباب هم «يوسف»، حيث قال تعالى: ﴿**وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ**﴾ الآية [يوسف: ٢٤]. وأما هم المرأة التي راودته فقد قيل: إنه كان هم إصرار؛ لأنها فعلت مقدورها، وكذلك ما ذكره عن المنافقين في قوله تعالى: ﴿ **وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا**﴾ [التوبة: ٧٤]، فهذا الهم المذكور عنهم هم مذموم، كما ذمهم الله عليه، ومثله يذم وإن لم يكن جازماً، كما سنبينه في آخر الجواب من الفرق بين ما ينافي الإيمان، وبين مالا ينافيه، وكذلك الحريص على السيئات الجازم بإرادة فعلها، إذا لم يمنعه إلا مجرد العجز، فهذا يعاقب على ذلك عقوبة الفاعل، لحديث أبي كبشة، ولما في الحديث الصحيح: « إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار » قيل: هذا القاتل، فما بال المقتول؟ قال: « إنه كان حريصاً على قتل صاحبه » وفي لفظ: « إنه أراد قتل صاحبه»[4].

فهذه الإرادة هي الحرص، وهي الإرادة الجازمة، وقد وجد معها المقدور، وهو القتال لكن عجز عن القتل، وليس هذا من الهم الذي لا يكتب، ولا يقال: إنه استحق
٧٤١/ ١٠ ذلك بمجرد قوله: لو أن لي ما لفلان / لعملت مثل ما عمل، فإن تمنى الكبائر ليس عقوبته كعقوبة فاعلها بمجرد التكلم، بل لابد من أمر آخر، وهو لم يذكر أنه يعاقب على

---

(١) مسلم في الفضائل (٢٣٨٠/ ٧٢)، عن أبي بن كعب.

(٢) سبق تخريجه ص ٤١٠.

(٣) سبق تخريجه ص ٤٠٤.

(٤) سبق تخريجه ص ٤٠٣.

كلامه، وإنما ذكر أنهما في الوزر سواء.

وعلى هذا فقوله : « إن اللّه تجاوز لأمتي عما حدثت بها أنفسها مالم تكلم به أو تعمل »[1] لا ينافي العقوبة على الإرادة الجازمة التي لابد أن يقترن بها الفعل ، فإن الإرادة الجازمة هي التي يقترن بها المقدور من الفعل ، وإلا فمتى لم يقترن بها المقدور من الفعل لم تكن جازمة ، فالمريد الزنا والسرقة وشرب الخمر العازم على ذلك متى كانت إرادته جازمة عازمة فلابد أن يقترن بها من الفعل ما يقدر عليه، ولو أنه يقربه إلى جهة المعصية، مثل تقرب السارق إلى مكان المال المسروق، ومثل نظر الزاني واستماعه إلى المزني به، وتكلمه معه ، ومثل طلب الخمر والتماسها ونحو ذلك، فلابد مع الإرادة الجازمة من شيء من مقدمات الفعل المقدور، بل مقدمات الفعل توجد بدون الإرادة الجازمة عليه ، كما قال النبي ﷺ ، في الحديث المتفق عليه: « العينان تزنيان وزناهما النظر ، واللسان يزني وزناه النطق، واليد تزني وزناها البطش ، والرجل تزني وزناها المشي ، والقلب يتمنى ويشتهي، والفرج يصدق ذلك أو يكذبه» [2]، وكذلك حديث أبي بكرة المتفق عليه: « إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار» . قيل : يارسول اللّه! هذا القاتل، فما بال المقتول؟ / قال: «إنه أراد قتل صاحبه» وفي رواية في الصحيحين: « إنه كان حريصًا على ١٠/٧٤٢
قتل صاحبه»[3].

فإنه أراد ذلك إرادة جازمة فعل معها مقدوره، منعه منها من قتل صاحبه العجز، وليست مجرد هم ولا مجرد عزم على فعل مستقبل، فاستحق حينئذ النار، كما قدمنا من أن الإرادة الجازمة التي أتى معها بالممكن يجري صاحبها مجرى الفاعل التام.

والإرادة التامة قد ذكرنا أنه لابد أن يأتي معها بالمقدور أو بعضه وحيث ترك الفعل المقدور فليست جازمة ، بل قد تكون جازمة فيما فعل دون ما ترك، مع القدرة، مثل الذي يأتي بمقدمات الزنا: من اللمس ، والنظر والقبلة ، ويمتنع عن الفاحشة الكبرى ؛ ولهذا قال في حديث أبي هريرة الصحيح :«العين تزنى ،والأذن تزني، واللسان يزني ـ إلى أن قال ـ: والقلب يتمنى ويشتهي»[4] أي يتمنى الوطء ويشتهيه، ولم يقل:يريد ، ومجرد الشهوة والتمني ليس إرادة جازمة، ولا يستلزم وجود الفعل ، فلا يعاقب على ذلك، وإنما يعاقب إذا أراد إرادة جازمة مع القدرة والإرادة الجازمة التي يصدقها الفرج.

---

(١) سبق تخريجه ص ٤٠٣.

(٢) البخاري في الاستئذان (٦٣٤٣) ومسلم في القدر (٢٦٥٧/ ٢٠).

(٣) سبق تخريجه ص ٤٠٣.

(٤) مسلم في القدر (٢٦٥٧/ ٢١).

ومن هذا الحديث الذي في الصحيحين عن ابن مسعود: أن رجلا أصاب من امرأة قبلة، فأتى رسول الله ﷺ فذكر ذلك / له، فأنزل الله تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ الآية [هود: ١١٤] فقال الرجل: ألى هذه ؟ فقال : « لمن عمل بها من أمتي » (١) . فمثل هذا الرجل وأمثاله لابد في الغالب أن يهم بما هو أكبر من ذلك، كما قال: «والقلب يتمنى ويشتهي، والفرج يصدق ذلك أو يكذبه»(٢). لكن إرادته القلبية للقبلة كانت إرادة جازمة، فاقترن بها فعل القبلة بالقدرة، وأما إرادته للجماع فقد تكون غير جازمة، وقد تكون جازمة، لكن لم يكن قادرا. والأشبه في الذي نزلت فيه الآية أنه كان متمكناً لكنه لم يفعل. ١٠/٧٤٣

فتفريق أحمد وغيره بين هم الخطرات وهم الإصرار هو الذي عليه الجواب، فمن لم يمنعه من الفعل إلا العجز، فلابد أن يفعل ما يقدر عليه من مقدماته، وإن فعله وهو عازم على العود متى قدر فهو مصر؛ ولهذا قال ابن المبارك: المصر الذي يشرب الخمر اليوم، ثم لا يشربها إلى شهر، وفي رواية إلى ثلاثين سنة ، ومن نيته أنه إذا قدر على شربها «شربها». وقد يكون مصراً إذا عزم على الفعل في وقت دون وقت ، كمن يعزم على ترك المعاصي في شهر رمضان دون غيره، فليس هذا بتائب مطلقا، ولكنه تارك للفعل في شهر رمضان، ويثاب إذا كان ذلك الترك لله وتعظيم شعائر الله، واجتناب محارمه في ذلك الوقت، ولكنه ليس من التائبين الذين يغفر لهم بالتوبة مغفرة مطلقة، ولا هو مصر مطلقاً . وأما الذي / وصفه ابن المبارك ، فهو مصر إذا كان من نيته العود إلى شربها. ١٠/٧٤٤

قلت: والذي قد ترك المعاصي في شهر رمضان من نيته العود إليها في غير شهر رمضان مصر أيضًا ، لكن نيته أن يشربها إذا قدر عليها، غير النية مع وجود القدرة، فإذا قدر قد تبقى نيته وقد لا تبقى، ولكن متى كان مريدا إرادة جازمة لا يمنعه إلا العجز فهو معاقب على ذلك، كما تقدم.

وتقدم أن مثل هذا لابد أن يقترن بإرادته ما يتمكن من الفعل معه، وبهذا يظهر ما يذكر عن الحارث المحاسبي أنه حكى الإجماع على أن الناوي للفعل ليس بمنزلة الفاعل له، فهذا الإجماع صحيح مع القدرة، فإن الناوي للفعل القادر عليه ليس بمنزلة الفاعل، وأما الناوي الجازم الآتي بما يمكن ، فإنه بمنزلة الفاعل التام، كما تقدم.

ومما يوضح هذا :أن الله ـ سبحانه ـ في القرآن رتب الثواب والعقاب على مجرد

---

(١) البخارى فى مواقيت الصلاة (٥٢٦) ومسلم فى التوبة (٢٧٦٣/ ٣٩) .

(٢) سبق تخريجه ص ٤١٥ .

الإرادة، كقوله تعالى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا﴾ [الإسراء: ١٨]، وقال: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ . أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ﴾ [هود: ١٥، ١٦]، وقال: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ [الشورى: ٢٠]. /٧٤٥ ١٠

فرتب الثواب والعقاب على كونه يريد العاجلة، ويريد الحياة الدنيا، ويريد حرث الدنيا، وقال في آية هود: ﴿نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا﴾ إلى أن قال: ﴿ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٥، ١٦]، فدل على أنه كان لهم أعمال بطلت، وعوقبوا على أعمال أخرى عملوها، وإن الإرادة هنا مستلزمة للعمل، ولما ذكر إرادة الآخرة، قال: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ [الإسراء: ١٩]، وذلك لأن إرادة الآخرة وإن استلزمت عملها فالثواب إنما هو على العمل المأمور به، لا كل سعي، ولابد مع ذلك من الإيمان.

ومنه قوله: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾ الآية [الأحزاب: ٢٨]، ﴿ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ﴾ [الأحزاب: ٢٩]، فهذا نظير تلك الآية التي في سورة هود، وهذا يطابق قوله: «إذا التقى المسلمان بسيفيهما» إلا أنه قال: «فإنه أراد قتل صاحبه». أو: «إنه كان حريصًا على قتل صاحبه» (١)، فذكر الحرص والإرادة على القتل وهذا لابد أن يقترن به فعل، وليس هذا مما دخل في حديث العفو: «إن الله عفا لأمتي عما حدثت به أنفسها» (٢).

ومما يبني على هذا مسألة معروفة - بين أهل السنة وأكثر العلماء / وبين بعض القدرية - وهي توبة العاجز عن الفعل، كتوبة المجبوب عن الزنا، وتوبة الأقطع العاجز عن السرقة، ونحوه من العجز، فإنها توبة صحيحة عند جماهير العلماء من أهل السنة وغيرهم. وخالف في ذلك بعض القدرية؛ بناء على أن العاجز عن الفعل لا يصح أن يثاب على تركه الفعل، بل يعاقب على تركه وليس كذلك، بل إرادة العاجز عليها الثواب والعقاب كما بينا، وبينا أن الإرادة الجازمة مع القدرة تجري مجرى الفاعل التام، فهذا العاجز إذا أتى بما يقدر عليه من مباعدة أسباب المعصية بقوله وعمله وهجرانها وتركها بقلبه، كالتائب /٧٤٦ ١٠

(١، ٢) سبق تخريجهما ص ٤٠٣.

القادر عليها سواء، فتوبة هذا العاجز عن كمال الفعل، كإصرار العاجز عن كمال الفعل.

ومما يبني على هذا المسألة المشهورة في الطلاق، وهو أنه لو طلق في نفسه وجزم بذلك ولم يتكلم به، فإنه لا يقع به الطلاق عند جمهور العلماء. وعند مالك في إحدى الروايتين يقع ، وقد استدل أحمد وغيره من الأئمة على ترك الوقوع بقوله: « إن اللّه تجاوز لأمتي عما حدثت به أنفسها» (١) فقال المنازع: هذا المتجاوز عنه، إنما هو حديث النفس، والجازم بذلك في النفس ليس من حديث النفس.

فقال المنازع لهم: قد قال : «ما لم تكلم به أو تعمل به» (٢)، فأخبر أن التجاوز عن حديث النفس امتد إلى هذه الغاية التي هي الكلام به / والعمل به ، كما ذكر ذلك في صدر السؤال من استدلال بعض الناس وهو استدلال حسن، فإنه لو كان حديث النفس إذا صار عزمًا ولم يتكلم به أو يعمل يؤاخذ به ؛ لكان خلاف النص ، لكن يقال: هذا في المأمور صاحب المقدرة التي يمكن فيها الكلام والعمل ، إذا لم يتكلم ولم يعمل، وأما الإرادة الجازمة المأتي فيها بالمقدور فتجرى مجرى التي أتى معها بكمال العمل ، بدليل الأخرس لما كان عاجزا عن الكلام ، وقد يكون عاجزا عن العمل باليدين ونحوهما، لكنه إذا أتى بمبلغ طاقته من الإشارة جرى ذلك مجرى الكلام من غيره ، والأحكام والثواب والعقاب وغير ذلك . ١٠/٧٤٧

وأما الوجه الآخر الذي احتج به وهو أن العزم والهم داخل في حديث النفس المعفو عنه مطلقاً فليس كذلك، بل إذا قيل : إن الإرادة الجازمة مستلزمة لوجود فعل ما يتعلق به الذم والعقاب وغيرذلك، يصح ذلك ، فإن المراد إن كان مقدورا مع الإرادة الجازمة؛ وجب وجوده ، وإن كان ممتنعاً فلابد مع الإرادة الجازمة من فعل بعض مقدماته ، وحيث لم يوجد فعل أصلا فهو هم، وحديث النفس ليس إرادة جازمة ولهذا لم يجئ في النصوص العفو عن مسمى الإرادة والحب والبغض والحسد والكبر والعجب وغير ذلك من أعمال القلوب ، إذ كانت هذه الأعمال حيث وقع عليهم ذم وعقاب فلأنها تمت حتى صارت قولا وفعلا.

/ وحينئذ قوله ﷺ: « إن اللّه تجاوز لأمتي» الحديث (٣)حق، والمؤاخذة بالإرادات المستلزمة لأعمال الجوارح حق، ولكن طائفة من الناس قالوا: إن الإرادة الجازمة قد تخلو عن فعل أو قول ، ثم تنازعوا في العقاب عليها ، فكان القاضي أبو بكر ومن تبعه كأبي ١٠/٧٤٨

(١ ـ ٣) سبق تخريجها ص ٤٠٣.

حامد وأبي الفرج بن الجوزي يرون العقوبة على ذلك ، وليس معهم دليل على أنه يؤاخذ إذا لم يكن هناك قول أو عمل.

والقاضي بناها على أصله في الإيمان الذي اتبع فيه جهمًا والصالحي، وهو المشهور عن أبي الحسن الأشعري ، وهو أن الإيمان مجرد تصديق القلب، ولو كذب بلسانه، وسب اللّه ورسوله بلسانه، وإن سب اللّه ورسوله إنما هو كفر في الظاهر، وأن كلما كان كفراً في نفس الأمر، فإنه يمتنع أن يكون معه شيء من تصديق القلب، وهذا أصل فاسد في الشرع والعقل، حتى أن الأئمة كوكيع بن الجراح وأحمد بن حنبل وأبي عبيدة وغيرهم كفروا من قال في الإيمان بهذا القول، بخلاف المرجئة من الفقهاء الذين يقولون: هو تصديق القلب واللسان، فإن هؤلاء لم يكفرهم أحد من الأئمة، وإنما بدعوهم.

وقد بسط الكلام في الإيمان وما يتعلق بذلك في غير هذا الموضع، وبين أن من الناس من يعتقد وجود الأشياء بدون لوازمها، فيقدر ما لا وجود له.

/ وأصل جهم في الإيمان تضمن غلطاً من و جوه: ١٠/٧٤٩

منها: ظنه أنه مجرد تصديق القلب ومعرفته بدون أعمال القلب، كحب اللّه وخشيته ونحو ذلك .

ومنها: ظنه ثبوت إيمان قائم في القلب بدون شيء من الأقوال والأعمال.

ومنها :ظنه أن من حكم الشرع بكفره وخلوده في النار، فإنه يمتنع أن يكون في قلبه شيء من التصديق ، وجزموا بأن إبليس وفرعون واليهود ونحوهم لم يكن في قلوبهم شيء من ذلك. وهذا كلامهم في الإرادة والكراهة والحب والبغض ونحو ذلك، فإن هذه الأمور إذا كانت هما وحديث نفس فإنه معفو عنه، وإذا صارت إرادة جازمة وحباً وبغضاً؛ لزم وجود الفعل ووقوعه ، وحينئذ فليس لأحد أن يقدر وجودها مجردة، ثم يقول: ليس فيها إثم، وبهذا يظهر الجواب عن حجة السائل.

فإن الأمة مجمعة على أن اللّه يثيب على محبته ومحبة رسوله، والحب فيه والبغض فيه، ويعاقب على بغضه وبغض رسوله، وبغض أوليائه، وعلى محبة الأنداد من دونه، وما يدخل في هذه المحبة من الإرادات / والعزوم ، فإن المحبة سواء كانت نوعاً من الإرادة ١٠/٧٥٠ أو نوعاً آخر مستلزماً للإرادة ، فلابد معها من إرادة وعزم، فلا يقال: هذا من حديث النفس المعفو عنه ، بل كما جاء في الحديث الذي رواه الترمذي:« أوثق عرى الإيمان:

الحب في اللّه، والبغض في اللّه» (١)، وفي الصحيحين عن أنس عن النبي ﷺ أنه قال: «والذي نفسي بيده لايؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين» (٢)، وفي صحيح البخاري عن عبد اللّه بن هشام قال: كنا مع رسول اللّه ﷺ وهو آخذ بيد عمر بن الخطاب فقال عمر: لأنت يا رسول اللّه أحب إلي من كل شيء، إلا من نفسي . فقال النبي ﷺ: «لا، والذي نفسي بيده ! حتى أكون أحب إليك من نفسك»، فقال عمر: فإنك الآن أحب إلي من نفسي. فقال النبي ﷺ: «الآن ياعمر!»(٣)، بل قد قال تعالى: ﴿ **قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ** ﴾ [التوبة: ٢٤].

فانظر إلى هذا الوعيد الشديد الذي قد توعد اللّه به من كان أهله وماله أحب إليه من اللّه ورسوله وجهاد في سبيله، فعلم أنه يجب / أن يكون اللّه ورسوله والجهاد في سبيله ١٠/٧٥١
أحب إلى المؤمن من الأهل والمال والمساكن والمتاجر والأصحاب والإخوان، وإلا لم يكن مؤمناً حقاً ، ومثل هذا ما في الصحيحين عن أنس قال: قال رسول اللّه ﷺ: «لا يجد أحد حلاوة الإيمان حتى يحب المرء لا يحبه إلا للّه، وحتى أن يقذف في النار أحب إليه من أن يرجع في الكفر، وحتى يكون اللّه ورسوله أحب إليه مما سواهما» وهذا لفظ البخاري (٤)، فأخبر أنه لا يجد أحد حلاوة الإيمان إلا بهذه المحبات الثلاث:

أحدها: أن يكون اللّه ورسوله أحب إليه من سواهما، وهذا من أصول الإيمان المفروضة التي لا يكون العبد مؤمناً بدونها.

الثاني: أن يحب العبد لا يحبه إلا للّه وهذا من لوازم الأول.

والثالث: أن يكون إلقاؤه في النار أحب إليه من الرجوع إلى الكفر.

وكذلك التائب من الذنوب من أقوى علامات صدقه في التوبة هذه الخصال، محبة اللّه ورسوله ، ومحبة المؤمنين فيه ، وإن كانت متعلقة بالأعيان ليست من أفعالنا كالإرادة

---

(١) سبق تخريجه ص ٥٢ .

(٢ ، ٣) سبق تخريجهما ص ٤٢.

(٤) البخارى فى الأدب (٦٠٤١) .

المتعلقة بأفعالنا، فهي مستلزمة لذلك، فإن من كان الله ورسوله أحب إليه من نفسه وأهله ومماله لابد / أن يريد من العمل ما تقتضيه هذه المحبة، مثل إرادته نصر الله ورسوله ودينه ١٠/٧٥٢
والتقريب إلى الله ورسوله، ومثل بغضه لمن يعادي الله ورسوله.

ومن هذا الباب: ما استفاض عنه ﷺ في الصحاح من حديث ابن مسعود وأبي موسى وأنس أن النبي ﷺ قال: « المرء مع من أحب» (١)، وفي رواية :« الرجل يحب القوم ولما يلحق بهم » أي ولما يعمل بأعمالهم ، فقال:«المرء مع من أحب» .قال أنس : فما فرح المسلمون بشيء بعد الإسلام فرحهم بهذا الحديث، فأنا أحب النبي ﷺ وأبا بكر وعمر ، وأرجو أن يجعلني الله معهم ، وإن لم أعمل عملهم ، وهذا الحديث حق، فإن كون المحب مع المحبوب أمر فطري لا يكون غير ذلك ، وكونه معه هو على محبته إياه، فإن كانت المحبة متوسطة أو قريبا من ذلك كان معه بحسب ذلك، وإن كانت المحبة كاملة كان معه كذلك ، والمحبة الكاملة تجب معها الموافقة للمحبوب في محابه ، إذا كان المحب قادراً عليها ، فحيث تخلفت الموافقة مع القدرة يكون قد نقص من المحبة بقدر ذلك ، وإن كانت موجودة.

وحب الشيء وإرادته يستلزم بغض ضده وكراهته، مع العلم بالتضاد؛ ولهذا قال تعالى: ﴿**لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ / الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ**﴾ [المجادلة: ٢٢]، ١٠/٧٥٣
والموادة من أعمال القلوب.

فإن الإيمان بالله يستلزم مودته ومودة رسوله، وذلك يناقض موادة من حاد الله ورسوله، وما ناقض الإيمان فإنه يستلزم الذم والعقاب؛ لأجل عدم الإيمان. فإن ما ناقض الإيمان كالشك والإعراض وردة القلب، وبغض الله ورسوله يستلزم الذم والعقاب لكونه تضمن ترك المأمور مما أمر الله به رسوله، فاستحق تاركه الذم والعقاب وأعظم الواجبات إيمان القلب، فما ناقضه استلزم الذم والعقاب لتركه هذا الواجب ، بخلاف ما استحق الذم لكونه منهياً عنه كالفواحش والظلم، فإن هذا هو الذي يتكلم في الهم به وقصده، إذا كان هذا لا يناقض أصل الإيمان، وإن كان يناقض كماله، بل نفس فعل الطاعات يتضمن ترك المعاصي ، ونفس ترك المعاصي يتضمن فعل الطاعات، ولهذا كانت الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، فالصلاة تضمنت شيئين:

أحدهما: نهيها عن الذنوب.

---

(١) البخاري في الأدب (٦١٦٨) ومسلم في البر والصلة (٢٦٤٠/ ١٦٥).

والثاني: تضمنها ذكر اللّه، وهو أكبر الأمرين ، فما فيها من ذكر اللّه أكبر من كونها ناهية عن الفحشاء والمنكر، ولبسط هذا موضع آخر.

١٠/٧٥٤ / والمقصود هنا أن المحبة التامة للّه ورسوله تستلزم وجود محبوباته؛ ولهذا جاء في الحديث الذي في الترمذي: « من أحب للّه، وأبغض للّه، وأعطى للّه، ومنع للّه؛ فقد استكمل الإيمان» (١)،فإنه إذا كان حبه للّه، وبغضه للّه، وهما عمل قلبه، وعطاؤه للّه، ومنعه للّه، وهما عمل بدنه؛ دل على كمال محبته للّه، ودل ذلك على كمال الإيمان؛ وذلك أن كمال الإيمان أن يكون الدين كله للّه، وذلك عبادة اللّه وحده لا شريك له، والعبادة تتضمن كمال الحب، وكمال الذل، والحب مبدأ جميع الحركات الإرادية، ولابد لكل حي من حب وبغض ، فإذا كانت محبته لمن يحبه اللّه، وبغضه لمن يبغضه اللّه؛ دل ذلك على صحة الإيمان في قلبه، لكن قد يقوى ذلك وقد يضعف ، بما يعارضه من شهوات النفس وأهوائها، الذي يظهر في بذل المال الذي هو مادة النفس، فإذا كان حبه للّه، وعطاؤه للّه، ومنعه لله؛ دل على كمال الإيمان باطناً وظاهراً.

وأصل الشرك في المشركين ـ الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً ـ إنما هو اتخاذ أنداد يحبونه كحب اللّه،كما قال تعالى: ﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ**﴾ [البقرة:١٦٥]، ومن كان حبه للّه وبغضه للّه ، لا يحب إلا للّه ، ولا يبغض إلا للّه، ولا يعطي إلا للّه، ولا يمنع إلا للّه، فهذه حال السابقين من أولياء اللّه كما روى ١٠/٧٥٥ البخاري / في صحيحه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «يقول اللّه : من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إليّ عبدي بمثل أداء ما افترضته عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته؛ كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، فبي يسمع، وبي يبصر ، وبي يبطش ، وبي يمشي، ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن قبض نفس عبدي المؤمن، يكره الموت وأكره مساءته ولابد له منه» (٢). فهؤلاء الذين أحبوا اللّه محبة كاملة تقربوا بما يحبه من النوافل، بعد تقربهم بما يحبه من الفرائض ، أحبهم اللّه محبة كاملة حتى بلغوا ما بلغوه، وصار أحدهم يدرك باللّه ، ويتحرك باللّه، بحيث إن اللّه يجيب مسألته ، ويعيذه مما استعاذ منه.

وقد ذم في كتابه من أحب أندادا من دونه ، قال تعالى: ﴿**وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ**﴾ [البقرة:٩٣]، وذم من اتخذ إلهه هواه وهو أن يتأله ما يهواه ويحبه، وهذا قد

---

(١) سبق تخريجه ص ٥٢.

(٢) سبق تخريجه ص ٨.

يكون فعل القلب فقط ، وقد مدح تعالى وذم في كتابه في غير موضع على المحبة والإرادة والبغض والسخط والفرح والغم ، ونحو ذلك من أفعال القلوب كقوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥] ، وقوله: ﴿كَلاَّ بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ . وَتَذَرُونَ الآخِرَةَ﴾ [القيامة: ٢٠، ٢١]، / وقوله: ﴿ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلاً﴾ [الإنسان: ٢٧]. ١٠/٧٥٦

وقوله: ﴿ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا﴾ [آل عمران: ١٢٠]، وقوله : ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ [الزمر: ٤٥] ، وقوله: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا﴾ [الحج: ٧٢] ، وقوله: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم ﴾ [البقرة: ١٠٩] ، وقوله: ﴿ مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلا الْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [البقرة: ١٠٥] ، وقوله: ﴿ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ ﴾ [الأنفال: ٧].

وقوله: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلاَّ أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلا يَأْتُونَ الصَّلاةَ إِلاَّ وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلا يُنفِقُونَ إِلاَّ وَهُمْ كَارِهُونَ﴾ [التوبة: ٥٤] ، وقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ [محمد: ٩]، وقوله: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِ إِيمَانًا﴾ الآية [التوبة: ١٢٤]، وقوله: ﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُ﴾ [الرعد: ٣٦]، وقوله: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾ [يونس: ٥٨].

وقال: ﴿ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ / الْفَرِحِينَ ﴾ [القصص : ٧٦] ، ١٠/٧٥٧
وقال: ﴿ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ﴾ [غافر: ٧٥]، وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ [لقمان: ١٨]، وقال: ﴿وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا﴾ [الشورى: ٤٨]، وقال: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا الإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ. وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ . إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [هود: ٩-١١]، وقال: ﴿وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴾ [الفجر: ٢٠]، وقال: ﴿ إِنَّ الإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ . وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ . وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ [العاديات: ٦-٨] ، وقال: ﴿وَلا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾[يوسف: ٨٧]، وقال: ﴿ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ الضَّالُّونَ﴾ [الحجر: ٥٦].

وقال: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾[فصلت: ٢٣]، وقال: ﴿ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ

وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾ [الفتح: ١٢]، وقال: ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ من فَضْلِهِ﴾ [النساء: ٥٤] ، وقال: ﴿ومن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ [الفلق: ٥] ، وقال: ﴿ولا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا﴾ [الحشر: ٩] ، وقال: ﴿لا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ . هَا أَنتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ ﴾ [آل عمران: ١١٨، ١١٩]،
١٠/٧٥٨ وقال: ﴿إِن / يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ﴾ [محمد: ٣٧]، وقال: ﴿إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ . وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ﴾ [العاديات: ٩، ١٠]، وقال: ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ [البقرة: ١٠]، وقال: ﴿فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾ [الأحزاب: ٣٢]، وقال: ﴿وَإِذْ[1] يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ [الأحزاب: ١٢]، وقال: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ﴾ [المائدة: ٤١]، وقال: ﴿قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧].

ومثل هذا كثير في كتاب الله وسنة رسوله واتفاق المؤمنين يحمد ويذم على ما شاء الله من مساعي القلوب وأعمالها، مثل قوله في الحديث الصحيح المتفق عليه: «لا تباغضوا ولا تحاسدوا» [2]، وقوله: « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه من الخير ما يحب لنفسه»[3]، وقوله: « مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر» [4]، وقوله: «لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال ذرة من كبر» [5]، و«لا يدخل النار من في قلبه مثقال ذرة من الإيمان» [6]، وقوله: «لا تسموا العنب الكرم، وإنما الكرم قلب المؤمن»[7] وأمثال هذا كثير.

بل قول القلب وعمله هو الأصل، مثل تصديقه وتكذيبه وحبه وبغضه، من ذلك ما يحصل به مدح وذم وثواب وعقاب بدون فعل الجوارح الظاهرة، ومنه ما لا يقترن به ذلك
١٠/٧٥٩ إلا مع الفعل بالجوارح الظاهرة / إذا كانت مقدورة، وأما ما ترك فيه فعل الجوارح الظاهرة للعجز عنه فهذا حكم صاحبه حكم الفاعل، فأقوال القلب وأفعاله ثلاثة أقسام:

أحدها: ما هو حسنة وسيئة بنفسه.

وثانيها: ما ليس سيئة بنفسه حتى يفعل، وهو السيئة المقدورة كما تقدم.

---

(١) في المطبوعة: « إذا» ، والصواب ما أثبتناه.

(٢-٤) سبق تخريجها ص ٧٩.

(٥، ٦) مسلم في الإيمان (٩١/١٤٨، ١٤٩).

(٧) البخاري في الأدب (٦١٨٢)، ومسلم في الألفاظ(٦/٢٢٤٧ ـ ١٠)، وأحمد ٢/ ٢٥٩، كلهم عن أبي هريرة.

وثالثها: ما هو مع العجز كالحسنة والسيئة المفعولة، وليس هو مع القدرة كالحسنة والسيئة المفعولة، كما تقدم.

فالقسم الأول :هو ما يتعلق بأصول الإيمان من التصديق والتكذيب، والحب والبغض، وتوابع ذلك؛ فإن هذه الأمور يحصل فيها الثواب والعقاب، وعلو الدرجات، وأسفل الدركات، بما يكون في القلوب من هذه الأمور، وإن لم يظهر على الجوارح، بل المنافقون يظهرون بجوارحهم الأقوال والأعمال الصالحة، وإنما عقابهم وكونهم في الدرك الأسفل من النار على ما في قلوبهم من الأمراض ، وإن كان ذلك قد يقترن به أحياناً بغض القول والفعل، لكن ليست العقوبة مقصورة على ذلك البغض اليسير، وإنما ذلك البغض دلالة كما قال تعالى: ﴿ **وَلَوْ / نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ**﴾ ١٠/٧٦٠ [محمد: ٣٠]، فأخبر أنهم لابد أن يعرفوا في لحن القول.

وأما القسم الثاني ،والثالث: فمظنة الأفعال التي لا تنافى أصول الإيمان، مثل المعاصي الطبعية، مثل الزنا ، والسرقة، وشرب الخمر، كما ثبت في الصحاح عن النبي ﷺ أنه قال: « من مات يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، دخل الجنة، وإن زنا وإن سرق، وإن شرب الخمر»(١)، وكما شهد النبي ﷺ في الحديث الصحيح للرجل الذي كان يكثر شرب الخمر، وكان يجلده كلما جيء به فلعنه رجل ، فقال:« لا تلعنه فإنه يحب الله ورسوله»(٢)، وفي رواية قال بعضهم : أخزاه الله ما أكثر ما يؤتى به في شرب الخمر. فقال النبي ﷺ : «لا تكونوا أعواناً للشيطان على أخيكم» وهذا في صحيح البخاري من حديث أبي هريرة (٣).

ولهذا قال :« إن الله تجاوز لأمتي عما حدثت به أنفسها ما لم تكلم به أو تعمل به»(٤)، والعفو عن حديث النفس إنما وقع لأمة محمد المؤمنين بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، فعلم أن هذا العفو هو فيما يكون من الأمور التي لا تقدح في الإيمان، فأما ما نافى الإيمان فذلك لا يتناوله لفظ الحديث؛لأنه إذا نافى الإيمان لم يكن صاحبه من / أمة ١٠/٧٦١ محمد في الحقيقة، ويكون بمنزلة المنافقين، فلا يجب أن يعفى عما في نفسه من كلامه أو عمله، وهذا فرق بين يدل عليه الحديث، وبه تأتلف الأدلة الشرعية، وهذا كما عفا الله لهذه الأمة عن الخطأ والنسيان ، كما دل عليه الكتاب والسنة، فمن صح إيمانه عفى له عن الخطأ والنسيان ، وحديث النفس ، كما يخرجون من النار، بخلاف من ليس معه الإيمان

---

(١) البخاري في الرقاق (٦٤٤٣) ومسلم في الإيمان (٩٤/١٥٣، ١٥٤).

(٢) البخاري في الحدود (٦٧٨٠).

(٣) البخاري في الحدود (٦٧٨١).

(٤) سبق تخريجه ص ٤٠٣.

فإن هذا لم تدل النصوص على ترك مؤاخذته بما في نفسه وخطئه ونسيانه؛ ولهذا جاء: «نية المؤمن خير من عمله» هذا الأثر رواه أبو الشيخ الأصبهاني في «كتاب الأمثال» من مراسيل ثابت البناني[1]، وقد ذكره ابن القيم في النية من طرق عن النبي ﷺ ثم ضعفها، فالله أعلم.

فإن النية يثاب عليها المؤمن بمجردها، وتجرى مجرى العمل إذا لم يمنع من العمل بها إلا العجز، ويمكنه ذلك في عامة أفعال الخير، وأما عمل البدن فهو مقيد بالقدرة، وذلك لا يكون إلا قليلا؛ ولهذا قال بعض السلف: قوة المؤمن في قلبه، وضعفه في بدنه، وقوة المنافق في بدنه، وضعفه في قلبه.

١٠/٧٦٢ وقد دل على هذا الأصل قوله تعالى: ﴿ **وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ / أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ** ﴾ الآية [البقرة: ٢٨٤]، وهذه الآية وإن كان قد قال طائفة من السلف: إنها منسوخة كما روى البخاري في صحيحه عن مروان الأصغر عن رجل من أصحاب النبي ﷺ - وهو ابن عمر - أنها نسخت، فالنسخ في لسان السلف أعم مما هو في لسان المتأخرين، يريدون به رفع الدلالة مطلقا، وإن كان تخصيصًا للعام أو تقييدا للمطلق، وغير ذلك، كما هو معروف في عرفهم، وقد أنكر آخرون نسخها لعدم دليل ذلك، وزعم قوم أن ذلك خبر، والخبر لا ينسخ، ورد آخرون بأن هذا خبر عن حكم شرعي، كالخبر الذي بمعنى الأمر والنهي.

والقائلون بنسخها يجعلون الناسخ لها الآية التي بعدها وهي قوله: ﴿**لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا**﴾ [البقرة: ٢٨٦]، كما روى مسلم في صحيحه من حديث أنس في هذه الآية، فيكون المرفوع عنهم ما فسرت به الأحاديث، وهو ما هموا به وحدثوا به أنفسهم من الأمور المقدورة، ما لم يتكلموا به أو يعملوا به، ورفع عنهم الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه. كما روى ابن ماجه وغيره بإسناد حسن: « إن الله تجاوز لأمتي عن الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه» [2].

وحقيقة الأمر: أن قوله سبحانه: ﴿ **إِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ** ﴾ [البقرة: ٢٨٤]، ١٠/٧٦٣ لم يدل على المؤاخذة بذلك؛ بل دل على المحاسبة به، ولا / يلزم من كونه يحاسب أن يعاقب؛ ولهذا قال: ﴿ **فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ** ﴾ لا يستلزم أنه قد يغفر ويعذب بلا سبب ولا ترتيب، ولا أنه يغفر كل شيء، أو يعذب على كل شيء، مع العلم بأنه لا

(١) الأمثال للأصبهاني ص ٩٠ بلفظ: « نية المؤمن أبلغ من عمله ».

(٢) ابن ماجه في الطلاق (٢٠٤٣) وأورده الهيثمي في المجمع ٦/٢٥٣ وقال: « رواه الطبراني في الأوسط وفيه ابن لهيعة وحديثه حسن وفيه ضعف ».

يعذب المؤمنين، وأنه لا يغفر أن يشرك به إلا مع التوبة، ونحو ذلك .

والأصل أن يفرق بين ما كان مجامعاً لأصل الإيمان وما كان منافياً له، ويفرق أيضاً بين ما كان مقدوراً عليه فلم يفعل، وبين ما لم يترك إلا للعجز عنه، فهذان الفرقان هما فصل في هذه المواضيع المشتبهة.

وقد ظهر بهذا التفصيل أن أصل النزاع في المسألة إنما وقع لكونهم رأوا عزماً جازمًا لا يقترن به فعل قط، وهذا لا يكون إلا إذا كان الفعل مقارناً للعزم، وإن كان العجز مقارناً للإرادة؛ امتنع وجود المراد،لكن لا تكون تلك إرادة جازمة،فإن الإرادة الجازمة لما هو عاجز عنه ممتنعة أيضًا ، فمع الإرادة الجازمة يوجد ما يقدر عليه من مقدمات الفعل ولوازمه، وإن لم يوجد الفعل نفسه.

والإنسان يجد من نفسه: أن مع قدرته على الفعل يقوى طلبه والطمع فيه وإرادته، ومع العجز عنه يضعف ذلك الطمع، وهو لا يعجز عما يقوله ويفعله على السواء، ولا عما يظهر على صفحات وجهه، / وفلتات لسانه، مثل بسط الوجه وتعبسه، وإقباله على الشيء ١٠/٧٦٤
والإعراض عنه، وهذه وما يشبهها من أعمال الجوارح التي يترتب عليها الذم والعقاب ، كما يترتب عليها الحمد والثواب.

وبعض الناس يقدر عزما جازما لا يقترن به فعل قط، وهذا لا يكون إلا لعجز يحدث بعد ذلك من موت أو غيره ، فسموا التصميم على الفعل في المستقبل عزما جازماً، ولا نزاع في إطلاق الألفاظ؛ فإن من الناس من يفرق بين العزم والقصد فيقول: ما قارن الفعل فهو قصد، وما كان قبله فهو عزم. ومنهم من يجعل الجميع سواء ، وقد تنازعوا: هل تسمى إرادة الله لما يفعله في المستقبل عزماً ؟ وهو نزاع لفظي ؛ لكن ما عزم الإنسان عليه أن يفعله في المستقبل، فلابد حين فعله من تجدد إرادة، غير العزم المتقدم ، وهي الإرادة المستلزمة لوجود الفعل مع القدرة، وتنازعوا أيضاً: هل يجب وجود الفعل مع القدرة والداعي؟ وقد ذكروا أيضاً في ذلك قولان.

والأظهر أن القدرة مع الداعي التام تستلزم وجود المقدور، والإرادة مع القدرة تستلزم وجود المراد.

والمتنازعون في هذه أراد أحدهم إثبات العقاب مطلقاً على كل عزم على فعل مستقبل، وإن لم يقترن به فعل ، وإرادة الآخر رفع العقاب / مطلقاً عن كل ما في النفس من ١٠/٧٦٥
الإرادات الجازمة ونحوها، مع ظن الاثنين أن ذلك الواحد لم يظهر بقول ولا عمل، وكل من هذين انحراف عن الوسط.

فإذا عرف أن الإرادة الجازمة لا يتخلف عنها الفعل مع القدرة إلا لعجز يجري صاحبها مجرى الفاعل التام في الثواب والعقاب. وأما إذا تخلف عنها ما يقدر عليها فذلك المتخلف لا يكون مراداً إرادة جازمة، بل هو الهم الذي وقع العفو عنه، وبه ائتلفت النصوص والأصول.

ثم هنا مسائل كثيرة فيما يجتمع في القلب من الإرادات المتعارضة كالاعتقادات المتعارضة، وإرادة الشيء وضده، مثل شهوة النفس للمعصية وبغض القلب لها، ومثل حديث النفس الذي يتضمن الكفر إذا قارنه بعض ذلك والتعوذ منه، كما شكا أصحاب رسول الله ﷺ إليه فقالوا: إن أحدنا يجد في نفسه ما لأن يحترق حتى يصير حممة، أو يخر من السماء إلى الأرض أحب إليه من أن يتكلم به. فقال: « أو قد وجدتموه؟! » فقالوا: نعم. قال : «ذلك صريح الإيمان» (١) رواه مسلم من حديث ابن مسعود، وأبي هريرة، وفيه: «الحمد لله الذي رد كيده إلى الوسوسة» (٢).

١٠/٧٦٦ وحين كتبت هذا الجواب لم يكن عندي من الكتب ما يستعان / به على الجواب، فإن له موارد واسعة. فهنا لما اقترن بالوسواس هذا البغض وهذه الكراهة، كان هو صريح الإيمان، وهو خالصه ومحضه ؛ لأن المنافق والكافر لا يجد هذا البغض ، وهذه الكراهة مع الوسوسة بذلك، بل إن كان في الكفر البسيط، وهو الإعراض عما جاء به الرسول ، وترك الإيمان به ـ وإن لم يعتقد تكذيبه ـ فهذا قد لا يوسوس له الشيطان بذلك، إذ الوسوسة بالمعارض المنافي للإيمان إنما يحتاج إليها عند وجود مقتضيه، فإذا لم يكن معه ما يقتضي الإيمان لم يحتج إلى معارض يدفعه، وإن كان في الكفر المركب وهو التكذيب فالكفر فوق الوسوسة، وليس معه إيمان يكره به ذلك.

ولهذا لما كانت هذه الوسوسة عارضة لعامة المؤمنين ، كما قال تعالى : ﴿ **أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ** ﴾ الآيات [الرعد : ١٧] . فضرب الله المثل لما ينزله من الإيمان والقرآن بالماء الذي ينزل في أودية الأرض ، وجعل القلوب كالأودية ، منها الكبير ، ومنها الصغير كما في الصحيحين عن أبي موسى عن النبي ﷺ أنه قال : « مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضاً ، فكانت منها طائفة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير ، وكانت منها طائفة أمسكت الماء فسقى الناس وشربوا ، وكانت منها
١٠/٧٦٧ طائفة إنما هي / قيعان لا تمسك ماءً ولا تنبت كلأ، فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه

(١) مسلم في الإيمان (١٣٢/٢٠٩).
(٢) أحمد ١/ ٢٣٥ ، وأبو داود في الأدب (٥١١٢).

اللّه بما بعثني به من الهدى والعلم ، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى اللّه الذي أرسلت به» [1]فهذا أحد المثلين.

والمثل الآخر ما يوقد عليه لطلب الحلية والمتاع، من معادن الذهب والفضة والحديد ونحوه، وأخبر أن السيل يحتمل زبداً رابياً ومما يوقدون عليه في النار زبد مثله، ثم قال: ﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ﴾ [الرعد: ١٧]، الرابي على الماء وعلى الموقد عليه فهو نظير ما يقع في قلوب المؤمنين من الشك والشبهات في العقائد والإرادات الفاسدة كما شكاه الصحابة إلى النبي ﷺ ، قال تعالى: ﴿فَيَذْهَبُ جُفَاءً﴾ يجفوه القلب فيرميه ويقذفه كما يقذف الماء الزبد ويجفوه ﴿وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾ وهو مثل ما ثبت في القلوب من اليقين والإيمان، كما قال تعالى: ﴿مَثَلاً [2] كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ الآية، إلى قوله: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ [إبراهيم: ٢٤ ـ ٢٧].

فكل ما وقع في قلب المؤمن من خواطر الكفر والنفاق فكرهه وألقاه ازداد إيماناً ويقيناً، كما أن كل من حدثته نفسه بذنب فكرهه ونفاه عن نفسه وتركه للّه ازداد صلاحاً وبراً وتقوى.

/ وأما المنافق فإذا وقعت له الأهواء والآراء المتعلقة بالنفاق لم يكرهها ولم ينفها ، فإنه ٧٦٨/ ١٠
قد وجدت منه سيئة الكفر من غير حسنة إيمانية تدفعها أو تنفيها، والقلوب يعرض لها الإيمان والنفاق ، فتارة يغلب هذا ، وتارة يغلب هذا.

وقوله ﷺ : « إن اللّه تجاوز لأمتي عما وسوست أو حدثت به أنفسها» [3] كما في بعض ألفاظه في الصحيح، هو مقيد بالتجاوز للمؤمنين، دون من كان مسلماً في الظاهر، وهو منافق في الباطن وهم كثيرون في المتظاهرين بالإسلام قديماً وحديثاً . وهم في هذه الأزمان المتأخرة في بعض الأماكن أكثر منهم في حال ظهور الإيمان في أول الأمر، فمن أظهر الإيمان وكان صادقاً مجتنباً ما يضاده أويضعفه يتجاوز له عما يمكنه التكلم به والعمل به، دون ما ليس كذلك. كما دل عليه لفظ الحديث.

فالقسمان اللذان بينا أن العبد يثاب فيهما ويعاقب على أعمال القلوب خارجة من هذا الحديث، وكذلك قوله: « من هم بحسنة» ، «من هم بسيئة» [4] إنما هو في المؤمن الذي

---

(١) البخاري في العلم (٧٩) ومسلم في الفضائل (٢٢٨٢/ ١٥).

(٢) في المطبوعة :«ومثل» ،والصواب ما أثبتناه.

(٣، ٤) سبق تخريجهما ص ٤٠٣.

يهم بسيئة أو حسنة يمكنه فعلها فربما فعلها وربما تركها؛ لأنه أخبر أن الحسنة تضاعف بسبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة.

١٠/٧٦٩ / وهذا إنما هو لمن يفعل الحسنات لله. كما قال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٦١] ، و ﴿ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٦٥] ،و ﴿ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ﴾ [الليل: ٢٠] وهذا للمؤمنين؛ فإن الكافر وإن كان الله يطعمه بحسناته في الدنيا، وقد يخفف عنه بها في الآخرة، كما خفف عن أبي طالب لإحسانه إلى النبي ﷺ ، وبشفاعة النبي ﷺ ، فلم يوعد لكافر على حسناته بهذا التضعيف، وقد جاء ذلك مقيداً في حديث آخر: إنه في المسلم الذي هو حسن الإسلام.

والله ـ سبحانه ـ أعلم، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم.